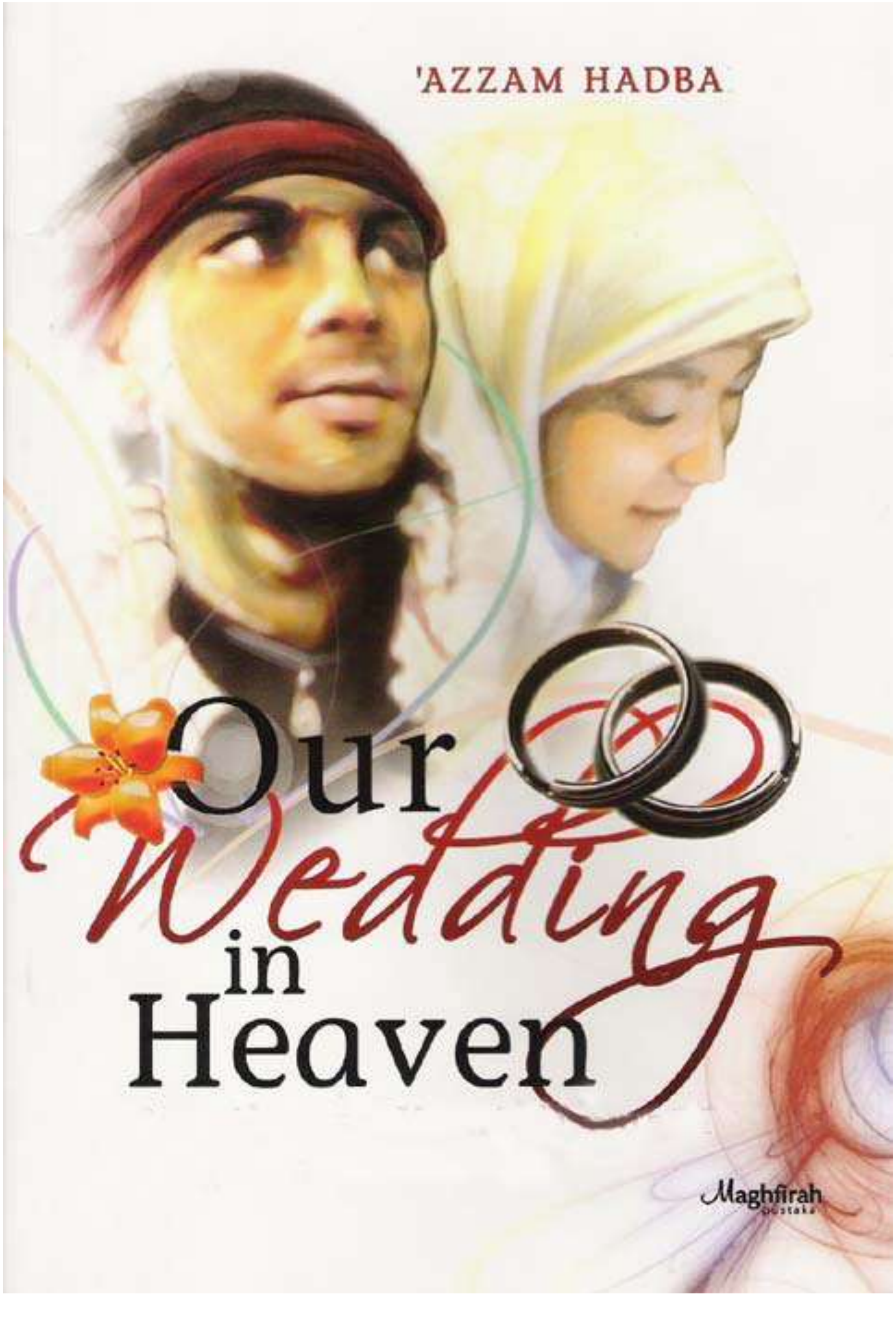
رواية عرسنا في الجنة

الكاتب المهندس الأستاذ: عزام حدبا



عرسنا في الجنة...

تأليف:

م .عزام حدبا

إهداء

الى كل شاب نذر نفسه في سبيل الله

والى كل فتاة تريد عرسا في الجنة..

وطني

لا احد يعلم على وجه اليقين ما هو سبب اندلاع الحرب في
وطننا ..الكثير يرجعون هذا الامر الى مجزرة
ارتكبت بحق ركاب باص مدني على يد مسلحين مجهولين في قلب
العاصمة ..لكن السبب الحقيقي ابعد من
ذلك ولا شك .. كانت النار تشتعل تحت الرماد على مدى سنين ..
فتن مذهبية بين طوائف متناحرة، تدخلات
اجنبية جعلت البلد مسرحا لحروب الآخرين على ارضنا، لا مبالاة
المسؤولين في احيان كثيرة وطمعهم في
كل حين ..من الصعوبة بمكان ان نصنف البلد الذي نعيش فيه
على انه وطن ..فلطالما كان كيانا هشا ركبته
الارادة الدولية على عجل جامعة فيه اقصى التناقضات ...لم يكن
غريبا في هذا البلد ان ترى البيكيني يسير

قرب الشادور ولا ان تفتح المواخير امام المساجد .لم يكن غريبا في
هذا البلد ان تندلع اقسى المعارك واقواها
بين ابناء الصف الواحد والطائفة نفسها فالاقربون اولى بالمعروف
وحينما يتحرك الطمع في النفوس تسقط
روابط القربى والدين .لم يكن في هذا البلد مبادىء ثابتة ولا احلاف
ثابتة .الكل كان مستعدا ليتعامل مع
الشيطان .والكل تعامل معه في فترة من الفترات ولو من تحت
الطاولة .ارتضى الشيطان ان يكون البعبع
الذي يخيفون به الناس طالما كان يرى ان مصالحه محفوظة .
ارتضى ان يكون الجندي المجهول في الحرب
الذي لا يعرف فضله في اندلاعها و اذكائها احد...
واليوم وبعد خمس وعشرون سنة من هذا الحدث الاليم ..اتساءل
هل انتهت الحرب حقا؟ ام انها ما زالت
تشتعل تحت الرماد وبحاجة لمن يطلق الشرارة الاولى كي تنفجر
من جديد .احيانا اطمئن واقول مستحيل ان
تعود الحرب .لقد سئمها الناس وادركوا عبثيتها ولكن كلما تذكرت ان
المسؤولين الذي يحكمون البلد الآن هم
انفسهم قادة الميليشات وسادة الحرب تشاءمت فصكوكهم مع
الشيطان لم تنته صلاحيتها ..ولا ادري متى
سيطالبهم بالدين .وها اني امسكت قلمي اليوم محاولا ان استرجع
بذكرياتي احداثا اليمة عايشتها بنفسي .. لن

ادعي اني ساؤرخ الحرب فالصورة اكبر بكثير من ان احيط بها ..
ساكتفي بأن انظر الى انعكاس صورة
الحرب في عيني ابطال هذه القصة .. بالنسبة للكثير كان هؤلاء
الابطال مجرد ارقام اضيفت الى قافلة طويلة
من ضحايا الحرب، اما بالنسبة لي، انا التي عايشتهم بنفسي فقد
كانوا ابطالا اسطوريين صبغت الحرب
حياتهم بالدم والدموع.

هدية اسامة

كان منزلي الذي ترعرعت فيه يقع على اطراف المدينة وكنت اشعر
بأني محظوظة بهذا الموقع الفريد فلم
تكن الكتل الخرسانية والاسمنتية تحيط بنا من كل جانب كمعظم
ابنية مدينتنا بل كانت بساتين الزيتون
والليمون تمتد امامنا على مد النظر ..وكنت في اوقات كآبتي التي
لا تنتهي اخرج الى الشرفة ربيعا واتنشق
ملء رئتي عبير زهر الليمون واخرج شتاء فاصطلي بشمس خجولة
تحتجب وراء الغيوم من فترة لاخرى.
وكان ابن عمتي اسامة يسكن مع والدته واخته ليلى في الشقة التي
قبالتنا منذ ان توفي والده شهيدا على الهوية
عند احد الحواجز الطائفية ابان الحرب .كان يكبرني بسنتين وعلى
رغم نفوره من البنات في فترة مراهقته فقد

كان يعزني كثيرا لربما لأنه لم يرني يومها كفتاة .. لم يرني يومها
كفتاة؟؟ لا ..كي اكون صادقة مع نفسي
هو لم يرني يوما واحدا كفتاة .في المشاهد الاولى من القصة
ساحاول ان اتحدث عنه واعرفكم به ومن ثم
سانسحب تدريجيا لاتركه يكمل القصة عني فهو الذي يستحق ان
يكون راويها لا انا كون احداث هذه الرواية
مستقاة من مذكراته التي كان يحرص على كتابتها يوميا .ولن يكون
تدخلي الا في ملىء بعض الثغرات التي
تركها في مذكراته او تلك التي لطختها دماءه الزكية في ذلك اليوم
المشؤوم .لم يحاول اسامة في مذكراته
التركيز على جرائم الخصم رغم وصولها الى حد لا يصدق من
الفظاعة والبشاعة فقد كان يعرف ان الحرب
ستنتهي يوما ولم يكن يريد ان ينكأ الجراح .لقد ركز اسامة على ما
فعلناه نحن بحق انفسنا وبحق شعبنا
متوقعا من الخصم ان يحذو حذوه في ممارسة النقد الذاتي
للممارسات الوحشية التي قام بها .اول مشهد اتذكر
اسامة فيه هو منظر والدته تشده من ثيابه وتصرخ فيه" تعال يا
مجنون ..انزل معنا الى الملجأ "..كان يجلس
على الشرفة يراقب القذائف المنهمرة كالمطر وكأنه ينظر الى
مفرقعات نارية تطلق احتفاء بعرس بهيج .لا بل

كان يتسلى باحصاء القذائف او الصواريخ وبمحاولة سبر نوعيتها من ازيزها .كان اسامة شجاعا ..لا اتذكر
ابدا اني رأيت في عينيه نظرة الخوف ..وكي اكون صادقة رأيتها فقط حينما كان يتكلم عنها ..فقد كانت هي
الشيء الوحيد – من هذه الدنيا بالطبع – الذي يجعل لحياته معنى كما كان يردد.
كان اسامة يعاملني كأخته ليلى تماما يخاف علي كما يخاف عليها وقد ترك استشهاد والده احساسا مبكرا
بالرجولة عنده فكان يغار علينا ويحرص على قضاء حوائجنا كي لا يحيجنا للخروج من المنزل اذ كان
متزمتا جدا من هذه الناحية .وكان مولعا بالحرب بشكل غريب بحيث لا يتخيل نفسه الا مقاتلا شرسا ممتطيا
الجيب العسكري وممسكا مضاد الطائرات بيديه الاثنتين ..وكثيرا ما كان يناديني كي اساعده في عصب رأسه
بشريطة حمراء مثل رامبو كان يتحول اثرها الى السوبرمان" الرجل الخارق "على حد زعمه.
وكان لا يفتأ يردد امامي :انظري يا حنين ..عندما اعصب رأسي بهذه فانا لا اخاف شيئا ..لا يؤثر بي
الرصاص ولا حتى الصواريخ..
كنت اضحك كثيرا اذ رغم انه يكبرني بسنتين فقد كنت واقعية جدا ولم اكن اصدق ان هذه الشريطة الحمراء

الرئة ممكن تحميه من الاخطار .ولكن الآن ..في هذه اللحظات
بالذات ..حينما استرجع ذكرياتي اعتقد اني
بدأت افهم ماذا تعني له هذه الشريطة ..لم يكن يؤمن كما كنت
اظن بانها تحيطه بهالة وهمية تحميه من
المخاطر بل كانت مجرد رمز بالنسبة له ..كانت رمزا يذكره بأن لا
مستحيل مع وجود التصميم والارادة.
كان اسامة ينتهز فترة الهدوء بين المعارك لينزل الى ارض المعركة
واعدا نفسه بصيد وفير من خراطيش
الرصاص الفارغة وغلة وافرة من شظايا القذائف ولكم كان يسر
حينما يجد بقايا صاروخ" غراد "يتعاون
على حمله هو وصديقه الحميم حسام الى مخبئهما السري تحت
انقاض احدى العمارات التي هدمتها الحرب.
لا زلت اذكر اول واغلى هدية قدمها لي اسامة .. كانت عقدا من
خرطوش الكلاشينكوف الفارغ خاطه بعناية
و رصعه في منتصفه بخرطوشة مضاد الطائرات .. ومع انه قدم
لي بعدها كثيرا من الهدايا الثمينة خاصة
عندما ترأس منظمته السرية الا اني لم ولن انس هذه الهدية الثمينة .
"انتبهي يا حنين "...قال لي يومها،" لا
تجرحي يدك بها فان كانت صدئة فقد تصابين بالغرغرينا ."نعم،
رغم استهتاره الواضح بحياته فقد كان

يحرص علي ..ويحرص على كل احبائه من ان يصيبهم ادنى ضيم
اوخدش حتى لو كانت نسمة هواء باردة
تلفح وجوههم.

فتاة في المدرسة

كانت شخصية اسامة قيادية منذ الصغر فاستطاع ان يفرض
شخصيته على محيطه حيث كان يحظى بطاعة
عمياء من شلته، بالنسبة لاسامة كانت الدنيا تنقسم الى لونين فقط :
ابيض واسود ..لم يكن هناك من لون
رمادي عنده .وكان يصنف الناس اما معه واما ضده ..اتباع او
اعداء ..هذه هي الدنيا بنظر اسامة .فقط
شخص واحد حظي بثقته الا وهو حسام صديق الطفولة ..وبحضوره
ومشاركته بدأت اغرب قصة نسجت
فصولها الاقدار .كنت انا واسامة – كمعظم ابناء الطبقة الوسطى
التي تحرص على تعليم اولادها افضل تعليم
–ندرس في مدرسة ارساليات تابعة للكنيسة الكاثوليكية الايطالية
وكانت ادارتها صارمة و تعليمها ممتازا
خاصة في ما يختص اللغات الاجنبية حيث كان يفرض علينا الا
نتكلم العربية حتى في الملعب وطبعا كان
اسامة يهزأ بهذا القرار ويتحداه لقوة اعتزازه بلغته الام ولو كلفه هذا
ان يعاقب او يؤنب .وهو بأي حال قليلا

ما كان يعاقب فقد نال حظوة عند كثير من المدرسين نظرا لاجتهاده
و تفوقه .ولكن مع كل هذه المعاملة
المميزة من الادارة له لم يبد لي ان اسامة كان مرتاحا لجو مدرسته .
واثبتت الايام صدق ظني..
لم يكن قد مضى على ابتداء السنة الدراسية اكثر من اسبوع حين
هرع حسام الى صديقه اسامة قائلا :اسمع
يا اسامة ها هو قاسم آت الينا .لا تعره أي انتباه.
اسامة :لماذا؟ لطالما كان من خيرة جماعتنا؟ ماذا فعل؟
فتقدم حسام وهمس في اذن صاحبه بكلام غير مسموع وعلى الاثر
هز اسامة رأسه اسفا وقال" ليس هذا
مستغربا ..دائما ما كنت اقول عنه مخنث"
واقترب قاسم منهم وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بريئة" السلام
عليكم ايها الاصدقاء "ولدهشته لم يرد احد
منهم عليه بل اشاحوا بوجههم عنه..
قاسم :لماذا تعاملوني هكذا؟ ماذا فعلت معكم؟؟
"انظر ..يتظاهر بالبراءة وكأنه لا يعرف ماذا فعل "قال حسام وهو
ينظر الى اسامة.
"لقد خنت الامانة ..انحرفت عن الصراط المستقيم ".. قال اسامة
بلهجة صارمة.
قاسم :لم افهم ..امانة؟؟ صراط؟؟ ما هذه التعابير الصعبة؟؟

اسامة :طبعا صعبة لانك تركت دروس المسجد وبدأت تصاحب البنات.

قاسم :اصاحب البنات؟؟ اقسم بالله ان ليس لي اصدقاء غيركم.

اسامة متوعدا :لا تقسم بالله كذبا فتدخل النار وبئس المصير.

وتابع حسام منفعلا وقد احمر وجهه" لقد رأيتكما معا بعيني اللتين سيأكلهما الدود"..

فامسك قاسم بقميص حسام وقال له" استحلفك بالله ان تتكلم .. رأيتني مع من؟؟ تكلم"..

حسام :تظاهر بالبراءة ايها الثعلب .. الم تكن البارحة تتكلم مع هذه الفتاة الجديدة في المدرسة؟؟

قاسم مدهوشا" :اتقصد عبير؟؟ كانت تساعدني في مسألة في الرياضيات فحسب"

فقال اسامة بتهكم واضح" رياضيات؟؟ صدقتك كثيرا .الفتيات فارغات العقول ولا يتقن الا الحفظ الببغائي" ..

قاسم :ربما ولكن عبير مختلفة .لقد اخذت العلامة الكاملة في هذه المادة..

صمت حسام صمتا مريبا واما اسامة فلم يصدق وقال" هذا غير معقول ..انا الاول في شعبتي ولم احظ

بالعلامة الكاملة يوما في الرياضيات ..انت تعرف ان الاستاذ حسيب صعب جدا في التصحيح"..

قاسم :_________بامكانك ان تسأل طلاب شعبتي ان اردت..

اعترف اسامة بالهزيمة وتمتم" فتاة تأخذ العلامة الكاملة في الرياضيات؟ لا بد انها قبيحة اذن ..ترتدي
نظارات طبية كبيرة وشعرها اشعث ..و"..
فتدخل حسام وقال بنبرة مهزومة" لا لقد رأيتها ..وجهها جميل كالبدر"..
وتابع عنه قاسم فقال" اما شعرها" ..و صمت هنيهة ثم اردف" لا نعرف .. فهي محجبة"
فتمتم اسامة في نفسه قائلا" محجبة؟؟ محجبة في مدرسة ارساليات؟؟ "وسرح في الافق حتى بدا وكأنه في عالم آخر..
نعم كما استشعرت بحاستي السادسة، لم يكن اسامة يشعر بالراحة لحظة واحدة لمكوثه في مدرسة ارساليات
مختلطة فقد كان يتمنى ان يتعلم في مدرسة رسمية للبنين فقط .
لطالما كان اسامة يعتبر في طفولته – كسائر
الصبيان من سنه – ان البنات كائنات ضعيفة يتفوق عليهن بسهولة في السباق والتسلق واستعراض القوى
ولطالما حبب اليه وهو صغير ان يشد شعر الفتيات من اقاربه
)باستثنائي طبعا فانا كنت طفلته المدللة كما
يردد (فكان يضحك كثيرا عندما يرى دموعهن السخية تجري على الخدود ..وكانت اهم هواياته بعد كرة القدم

وجمع بقايا الصورايخ وشظاياها ان يتلذذ بتعذيب القطط والكلاب والبنات وربما في لاوعيه لم يكن ليفرق بين الاجناس الثلاث .لكن لم يستطع اسامة ان يفهم سر هذا الاحساس الغريب الذي بدأ يسري في عروقه مع مداهمة سن البلوغ ..لم بدأ يشعر بالضعف امام الفتيات ويحلم بالاستماع لاصواتهن الرقيقة او تتبع ملامح الانوثة في اجسادهن؟؟؟ كانت هذه اسئلة اصعب من ان يستطيع عقله اليافع ان يجيب عليها .. فكان يقول في نفسه لا بد وان الاناث ساحرات .. لا بل شياطين ..الم يقل الشيخ مسعود في خطبة الجمعة ان المرأة تقبل في صورة شيطان؟ الم يقل ان اكثر اهل النار من النساء؟؟ بلى كان اسامة يؤكد..

النفور من المدرسة

المتأمل في تاريخ مدينتنا سيجد ان مسجد الرحمة بزخرفته الاثرية وقبته الخضراء ومأذنته الحجرية هو من اقدم المساجد في المدينة ويقال انه يعود الى عصر المماليك حيث امر ببنائه الامير طولون ..ولا ريب ان اي دولة تحترم نفسها كانت لتجعل منه تحفة معمارية ومزارا للسواح ولكن في وطننا ليس للبشر قيمة فهيهات ان يكون للحجر ...وكان الشيخ مسعود إمام هذا المسجد رجلا سبعينيا تزين وجهه لحية بيضاء وقورة وكان

يحظى باحترام وتقدير جانب اهل المنطقة لتواضعه و اندماجه
بالناس و يسر فتاويه التي راعى فيها دوما
حالة السائل دون ان يحيد عن قطعيات الدين مرددا عبارة" يسر ولا
تعسر ..بشر ولا تنفر ."غير انه اذا اعتلى
المنبر تحول الى انسان آخر يرغي ويزبد ويتوعد بجهنم حتى
يشعرك انها تكاد تلفحك بنارها وكم اسال
الدموع انهارا من خشية الله في خطبه النارية غير انه مع ذلك لم
يهمل جانب الترغيب في الدعوة فكان احيانا
يصف للمصلين الجنة بحورها وقصورها وانهار الخمر والعسل
واللبن وفاكهتها التي لا ينضب معينها حتى
لكأنك تكاد تطال عنقودا من اعنابها بيديك .ولكن لما كان اسامة
احادي النظرة في هذه الامور فهو لم يحفظ
من كلام الشيخ الا الوعيد .ومع ان الشيخ مسعود لم يكن يروج ابدا
لهذه الافكار العدائية ضد النساء بل كان
يقول هذا الكلام في وصف المتبرجات المستهترات فقط الا ان
اسامة في هذا السن لم يفهم هذا الاسلوب بل
كان يعمم كلام الشيخ على النساء كلهن حتى انه طور مع شلة من
اصدقائه عقيدة خاصة بهم تعتبر ان البنات
شر مطلق وان مجرد الكلام مع بنت اثم كبير يستحق ان يغمس
صاحبه في النار .ومع كرهه العميق للجنس

الآخر فقد كان اسامة يحب والدته انيسة كثيرا فقد كانت كل شيء بالنسبة له بعد استشهاد والده .كانت الاب
والام والصديق ..ولم يكن يرى فيها الانثى ابدا ..بل يراها فقط كأم . لذلك فهو ما كان يصدق ابدا ان ما
يتحدث عنه زملائه الصبيان عن العلاقة بين الرجل والمرأة ممكن ان يكون جرى يوما بين امه وابيه فوالده
شهيد ضحى بحياته من اجل الدفاع عن مدينته ووالدته طاهرة جدا ولا تقوم بهذه الافعال الشائنة الدنسة.
وظلت السيدة انيسة مستودع اسرار ابنها حتى سن البلوغ حيث بدأ يخفي عنها اسرارا كثيرة يصنفها
رجولية و اصبح ينظر الى نفسه على انه رجل الاسرة فلا يليق به ان يعبر عن احساسه بالضعف او الخوف
امامها بعد الآن .لا بل انه مارس دوره التسلطي باكرا مع اخي الصغير" رائد "فكان ينهره ويضربه اذا بكى
لأن الرجال لا تبكي ..متناسيا انه في عمره كان يبكي وبحرارة ايضا ..ولأتفه الاسباب .المهم في ذلك اليوم
وعقب" خيانة "قاسم جاء اسامة الى والدته منكس الرأس وكأنه قد خسر للتو معركة ستالينغراد .وبقى لثوان
صامتا جريا على عادته فجذبته السيدة انيسة نحوها بحنان وقالت:
ما بك يا بني؟؟ الم توفق في الامتحان؟؟ ثم تابعت بمكر" هل اخذت تسعة على عشرة؟؟ "اذ كانت تعرف ان

ابنها ينشد الكمال وان اكبر همومه هي فشله في نيل العلامة الكاملة ..لكنه فاجأها بموضوع آخر.

اماه انا لا اريد ان ابقى في هذه المدرسة ..اريدان انتقل الى مدرسة رسمية

فهزت السيد انيسة رأسها استغرابا وقالت لماذا يا بني؟ انها مدرسة ممتازة والتعليم فيها افضل من..

ولكن نفس الاساتذة يعلمون في المدارس الرسمية..

بني ..اظننا سبق وتكلمنا في هذه القضية من قبل .المشكلة في المدارس الرسمية هي في ضعف الادارة

ونوعية الطلاب ..انهم بلا اخلاق ..ثم ان المدارس الرسمية لا تهتم بتعليم اللغات الاجنبية..

انا لا يهمني ان ادرس لغات ..انا لن اسافر الى الغرب .. انهم اعداؤنا ..انا لا افهم كيف تضعيني في

مدارسهم في الاصل؟ لقد قتلوا هم واتباعهم والدي..

بني لا تحمل هذه النظرة القاسية عن الآخر ..في كل مكان هناك الصالح والطالح..

لكن مدرستنا يعم فيها الفساد..

فاستغربت الام هذا السؤال وقالت" ماذا تقول؟ انها مدرسة راهبات .. انهم لا يسمحون باي شيء مناف

للاخلاق هناك"..

اسامة :حقا؟؟ وماذا تقولين عن الاختلاط والفتيات اللواتي يقمن
باغراء الشباب ..بالامس سقط واحد من اعز
اصدقائي في براثن احداهن..
"احداهن؟؟ من اين تأتي بهذا الكلام؟؟ "ضحكت السيدة انيسة
وضمت ابنها الى صدرها ..ثم قالت" بني ..هذا
هو المجتمع .. لا نستطيع ان ننعزل عنه ..طبائع الناس مختلفة"..
"واين الامر بالمعروف والنهي عن المنكر؟؟"
"بارك الله فيك يا بني ..هذا تمارسه حينما تكبر وتصبح في سن
تفهم فيه اولويات الدعوة .احب ان اراك
عالما متفهما ومعتدلا كما كان والدك رحمه الله "..ثم انها ضمته
بشدة ونظرت الى صورة الشهيد وبكت بكاء
مرا ..وتمتمت في سرها" اشتقت لك ..الحمل اصبح ثقيلا علي
وحدي ..ابنك يحتاج لرجل كي يوجهه"..

منافس جديد على العرش

لكن ..من هي هذه الفتاة التي ارقت مضجع اسامة والتي كتب لها
ان تلعب الدور الاكبر في حياته القصيرة؟
عبير فتاة من وطني نشأت في الخليج حيث ترك والدها السيد رأفت
استاذ الرياضيات المعروف وطنه مهاجرا
الى هناك ليحصل لقمة العيش الكريمة بعد ان سدت في وجهه
الطرق .وبعد عشر سنوات قضاها هناك آثر

الاستاذ رأفت ان يعود الى وطنه خاصة بعد ان حاول بعض افراد الادارة الجديدة للمدرسة التي يعلم بها
ممارسة بعض الضغوط عليه كي يميز بين الطلاب حسب درجة قرابتهم للاسرة المالكة وهو ما كان مرفوضا
تماما عنده .لم يكن السيد رأفت والد عبير من نوع الآباء السلطويين القساة القلوب بل كان يؤمن بوجوب
مصادقة بنيه متى كبروا ..وكان ينتهز فترة الغداء ليستمع الى اخبار ابنائه من دون كلل او ملل حيث كان هذا
هو الوقت الوحيد المتاح للاسرة كي تجتمع معا .وكثيرا ما كانت السيدة نادية زوجته تضيق ذرعا بثرثرة
اولادها وتنهرهم فيرمقها بنظرة عتاب حانية فترتدع وتلتزم الصمت حتى ينهي الاولاد قصصهم .كان السيد
رأفت رجلا فريدا من نوعه، يمارس دور المربي باسلوب باهر حيث يحرص على توجيه الاشارات الى
اولاده بمنتهى الهدوء والحب والحنان والتفهم ولكن دون ان يتخلى عن الحزم إذا لزم الأمر .ومن دون سائر
بناته كان السيد رأفت يكن معزة خاصة لابنته البكر عبير .كانا صديقين بكل ما في الكلمة من معنى حيث انها
ورثت عنه حبه للعلم والرياضيات وتذوق الادب .كانا يقضيان الساعات الطوال معا يتناقشان في تحليل رواية

ما او في حل معادلة حسابية .بالنسبة لعبير لم يكن السيد رأفت ابدا
مجرد والد تنتهي مسؤوليته عند حدود
الانفاق على الاسرة كسائر آباء صديقاتها بل كان المثال الأعلى
لها وقدوتها لدرجة انها لم تستطع ان تتخيل
فارس أحلامها الا بصفات تطابق صفاته وملامح تشابه ملامحه..
ومرت الايام ونبذت شلة اسامة قاسم بعيدا عنهم كأنه البعير
الاجرب ولقب بالخائن الذي تجرأ وكان اول من
يتكلم مع فتاة من الشلة مع ان المسكين لم يعد الكرة ابدا .وهم قاسم
عدة مرات بالاعتذار من اسامة وتوضيح
الموقف ولكن عبثا ففي عرف اسامة " المتكلم مع البنات كساب
الرسول لا تقبل توبته ."وانا الآن اذ اخط هذه
العبارات ادرك يقينا مدى الظلم الفادح الذي الحقه اسامة بقاسم حين
اتهمه بالتقرب من عبير .كانت عبير
جميلة جدا ولا شك وفتنت معظم فتيان صفها الا قاسم بالذات
فالقلب الممتلىء لا يتسع لاثنتين وقلب قاسم لم
يكن شاغرا .ومر عام على هذه الحادثة وترفع اسامة الى الصف
الثانوي الاول حيث اجبرت الادارة على ضم
كل الشعب في صف واحد نظرا للرسوب الكبير في الشهادة الرسمة
البريفيه ولاختيار عدد كبير من الطلاب
التعليم المهني بديلا عن الثانوي .وكان اسامة قد تعود ان يكون
الاول في صفه منذ صف الحضانة بدون

منافس جدي .وكان هذا الامر يعني له الكثير اذ ان زعامته للشلة مرتبطة بتفوقه عليهم فكريا وليس جسديا
فقط خاصة وانهم كانوا ينظرون اليه كأنه نابغة عصره الذي لا يعجز امام أي تحدي .وبدا منذ الايام الاولى
ان عبير ستكون منافسا جديا له فقد كانت تتمتع بطلاقة رهيبة في اللغات، ولم تكن في الوقت نفسه ضعيفة في
مواد العلوم التي طالما اعتبرها هو من اختصاص الذكور.

الثعلب ذو النظارات

كان المستر سميث استاذا للادب الانكليزي والفلسفة في المدرسة مند فترة طويلة .. ورغم انه مكث في البلاد
عشرين عاما يدرس آدابها وثقافتها الا انه لم يطبق المثل القائل "من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم "فلم
يستطع ولا للحظة ان يتأقلم مع طريقة التفكير العربية ..كانت طريقة العرب في التفكير عاطفية مثالية بنظره
فيما كان هو يقدس العقل والمنطق والمصلحة لا بل لم يكن يميز بين المنطق والمصلحة اصلا فكل ما يصب
في مصلحته يعتبره منطقيا .والسؤال الذي حيرني دوما :لماذا يقيم هذا الغربي بيننا ان كان يكره ثقافتنا الى
هذا الحد؟؟ كيف يتحمل الحياة في بلد تثخن فيه الحرب جراحا ويترك بلادا غنية ومتحضرة؟؟ بنظري كان

استاذ المنطق المستر سميث لا منطقيا ابدا في تصرفه هذا ..
واثبتت الايام صدق حدسي.
لم يكن اسامة يرتاح ابدا لهذا الرجل وكثيرا ما كان يقول لي انه
يخفي وراء نظاراته الطبية عيون ثعلب
وتحت قفازاته المخملية مخالب الذئب .وفي الحقيقة لم يكن هذا
الموقف موقف اسامة فقط بل موقف معظم
طلاب الصف اذ لم يستطيع المستر سميث ان يدخل في قلب احد
الا في قلب قاسم فقد تفرد به كما يتفرد
الاسد بالحمل المعزول عن القطيع واستطاع ان يؤثر فيه تأثيرا قويا
مستغلا وحدته التي نشأت بعد مقاطعة
شلته القديمة له .وفي احد الايام دخل المستر سميث الصف ليعطي
حصته ووضع كراريسه على المكتب ثم
اتكأ عليه بطريقة مسرحية وسأل مناورا :هل الاعدام عقوبة همجية؟
اريد ان افتح حوارا حول الموضوع..
وهنا سأل قاسم متلهفا :وما رأيك انت يا استاذ؟؟ انت تعرف اكثر
منا..
فاجاب سميث وهو يذرع الرواق جيئة وذهابا :رأيي– ولا افرضه
على احد –بأن عقوبة السجن ممكن تغني
عن الاعدام ..والاعدام بنظري عقوبة قاسية جدا وتنتمي الى
العصور الوسطى ولا مكان لها في عالمنا

الحاضر .لا يحق للانسان ان يسلب روح انسان آخر تحت أي ذريعة.

وهنا رفع حسام يده ليجيب :ولكن الاسلام يقول" **ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب** "مقرا عقوبة الاعدام للقاتل..

رفع المستر سميث نظارتيه السميكتين وقال ببرود" انا احترم الاسلام يا حسام، لكن انا اسألك عن رأيك الشخصي لا عن رأي الدين".

فاستشاط اسامة غضبا و لكنه كظم غيظه وفال بهدوء" : نحن المسلمون لا نخالف امرا اقره الاسلام لنا،

يقول الله تعالى في كتابه الكريم" **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**"

فانتبه المستر سميث الى انه يجابه سدا منيعا وحاول ان يلتف حول الموضوع فقال" نعم ولكن فهم الانسان للدين يتطور مع الوقت ..الحياة في تقدم مستمر ولا ينبغي الوقوف عند تفسير جامد للنص ..خاصة اذا كان قاسيا وعنيفا "ثم التفت الى عبير ضاربا على وتر منافستها مع اسامة وسألها" ما رأيك انت يا عبير؟؟ "متوقعا

___________ان توافقه في رأيه كعادة الفتيات المؤدبات حين يسألهن الاستاذ خاصة مع ما يدرك عنها من رقة قلب ولين

طبع واستهجان للعنف بكل اشكاله.
لكن عبير فاجئت الجميع حينما قالت وباقتناع كبير" رأيي مثل رأي
اسامة ."لقد شعر اسامة بشعور غريب في
قلبه فلأول مرة يلفظ احدهم اسمه بهذه النعومة وكأنه موسيقى فيثارة
ملائكية .لطالما اعتبر اسامة عبير العدو
الاول حتى قبل ان يراها ..لقد كانت الافعى التي فرقت بين
الاصدقاء ..لم يكن يتصور انها ممكن توافقه على
رأي ..وحتى لو وافقته كان يتصور انها ستجيب بكلمات اخرى ..
ولكن يبدو ان عبير لم تجد كلمات لتعبر
عن فكرتها بافضل مما تكلم اسامة .ومع ذلك فلم يقابل اسامة
تصرف عبير بلباقة اذ خشي ان يفسر موقفه
عندها على انه تنازل او ضعف فجلس وقال متهكما بصوت خافت
"ببغاء ."..وفي الايام التالية بدأ تأثير عبير
يشتد على اسامة لدرجة انه بات يكره المدرسة وكل ما يمكن ان
يذكره فيها .كره سماع صوتها او ذكر اسمها
لا بل وصل به الحد انه اصبح يتجنب اختيار كلمة" عبير "اذا اراد
ان يكتب موضوعا ادبيا في حصة الادب
وآثر ان يختار بدلا من هذه الكلمة ما يناسب المعنى مثل" شذى "
او" عطر .."وظلت ايامه جحيما متواصلا
يحاول ان يعتاد عليه بانتظار الفرج والخروج من هذه المدرسة
اللعينة.

ومع حرصه على تجنب عبير شاء القدر ان يضعهما في مواجهة وجها لوجه ففي يوم من ايام تشرين الجليدية
كان المطر يهطل بقوة فاندفع اسامة بقوة الى داخل المدرسة هربا من المطر في نفس الوقت الذي كانت فيه
عبير تهم بالدخول فاصطدم بها عفوا ووقعت الكتب منه وتلوثت بالطين فثار في وجهها وقال بقسوة" لم لا
تنظري امامك يا خرقاء؟؟ "فتفاجأت المسكينة ولم تعرف ماذا تجيب فقد كانت اول مرة يكلمها فيها احد بهذه
القسوة وقالت" اسفة ..دعني اساعدك "..وجلست القرفصاء بطريقة مهذبة جدا وحاولت ان تساعده في جمع
الكتب ومسح الطين الذي لوثها الا انه صدها بقسوة ظاهرة وقال "شكرا استطيع ان اتدبر الامر وحدي ولكن
انتبهي في المرة القادمة " فرددت عبير اعتذارها وانسحبت هي تحاول ان تخفي دموعها.

اشبال التنظيم

حتى ذلك الوقت كانت الحرب الاهلية متركزة في العاصمة كونها ملتقى الطوائف ومحور التناقضات
بالاضافة الى كونها الموقع الاستراتيجي الاهم الذي يخول المسيطر عليها الامساك بزمام البلد .الا ان الحرب
سرت رويدا رويدا في البلاد كلها كالنار تنتشر في الهشيم .ومع ان مدينتنا كانت مثالا للتعايش الطائفي الا انه

في وقت الشدة كل عنزة تلحق بقطيعها .ولم يكن هذا ليكون بالامر
الخطير لو ان هذه القطعان يقودها الراعي
الصالح اما وانها قد تركت للتيوس كي تقودها فلم يكن من الصعب
تخيل طبيعة الاقتتال فيما بينها .وبدأ الفرز
يحصل تدريجيا ونشأت من اللاشيء جدر وهمية قسمت المدينة
بخطوط غير مرئية اسميناها خطوط التماس.
لم تكن هذه الخطوط مرسومة او مسيجة بخطوط واضحة ولكنها مع
ذلك كانت معروفة للجميع لا يجرؤ على
تخطيها احد اذ بمجرد ان يفعل ذلك سيقع فريسة طلقة قناص
محترف او ضحية لغم ارضي زرع بعناية جنبا
الى جنب مع شجرة ليمون يؤنس وحدتها.
ولما

هذه الاشياء الشنيعة التي نراها في المنام مع زوجاتنا؟؟ انا لا اصدق..
حسام :بلى يا اسامة .. نحن لم نتلق تثقيفا كافيا فنظن ان هذه الامور خطأ وإنها مقرفة ونجسة .لكنها في
الحقيقة طبيعية جدا وكل الرجال يقومون بهذه الامور حتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبدون هذه الامور
لا يمكن ان تعمر الارض او يتكاثر الناس ويتناسلون.
لم يجد اسامة ما يجيب به حسام فقد اعطاه البرهان الحاسم على كلامه حينما تكلم عن قدوة المسلمين محمد
عليه الصلاة والسلام ..فانصرف وهو مدهوش لغرابة ما سمعه في ذلك اليوم واقسم ان يتعلم اكثر عن هذه
الامور ويتثقف وبالفعل فقد اشترى كل كتاب ديني عن الزواج وقع تحت يديه وحينما قرأ هذه الكتب تغيرت
كل نظرته نحو النساء ونحو عبير الذات وادرك كم ظلمها دونما ذنب وندم ندما فظيعا ..لكن بعد فوات الاوان
فلم تكن هي مستعدة ان تكلمه بعد الآن ..ولا كان هو من النوع الذي يعتذر عن اخطائه ..كان يظن ان
الاعتذار دليل ضعف وهو... الرجل الخارق السوبرمان ..فمن غير المفترض ان يضعف ابدا او ان
يخطىء..

في احضان الحصن المنيع

وتطلب الامر اسبوعا كاملا حتى عادت عبير الى طبيعتها وقامت
من تلقاء نفسها وبحثت عن أبيها فوجدته
في غرفة مكتبه يقرأ .ولما رآها مقبلة عليه هش لها وأجلسها على
ركبتيه ونظر إليها نظرة كلها شفقة وحنان
وأخذ يرتب خصلات شعرها الفاحم ويرفعها عن جبينها الناصع
البياض فاستسلمت ليده الحانية وارتمت في
حضنه الدافىء!!!
الأب :أهدأت الآن ؟؟؟
الأبنة : نعم يا ابي الحمد لله
الأب : أتودين التحدث معي ؟؟
الأبنة وقد عدلت من جلستها في حجر أبيها" نعم يا ابي أريد
نصيحتك وأريد أن أعرف هل هذا حرام أم
حلال ما أشعر به .هل الله غاضب علي ؟؟؟ "وبدأت في البكاء مرة
أخرى ثم تابعت بصوت متهدج " :أني
أشعر أن الله لا يحبني ويعاقبني بهذا ؟؟؟ ألم تقل لي أن احبنا الله
أهدانا من نحب ؟؟؟ هل أنا هكذا عاصية ؟؟؟
هل أنا قبيحة ؟؟؟ هل أنا غير مؤدبة ؟؟؟ وانهمرت على السيد رأفت
مئات الأسئلة المتلاحقة والغير مترابطة
والتي ان دلت على شيء فعلى شيء واحد فقط الا وهو مدى التيه
الذي تشعر به الفتاة...

وبدأ السيد رأفت في تهدئة روع أبنته وطمأنتها فهو يدرك تماما ما تمر به تلك الصغيرة التي لم تتجاوز
الخامسة عشرة من عمرها بعد .كانت عبير برعما صغيرا يحتاج لرعاية وعناية فائقة حتى يثمر عن تلك
الزهرة التي يحلم في يوم من الايام أن تتفتح في ظل حنانه الابوي . وتقدم السيد رأفت من ابنته وقال لها
بمنتهى الحنان" : لماذا يا حبيبتي تقولين هكذا ؟؟؟ وكيف يغضب الله عليك ؟؟؟ ولماذا؟؟؟ وعلى ماذا ؟؟؟ أمن
أجل أنك شعرت ببعض الانجذاب لفتى وعلى ما أعتقد أنه ليس بأي فتى حتى يلفت انتباه وقلب صغيرتي
الجميلة ."ثم نظر اليها ليرى ردة فعلها وهو يبتسم ابتسامة هائنة و عندما انس منها الاطمئنان استرسل في
توجيهه قائلا" في هذا السن من الطبيعي أن تشعر الصبايا والفتيان بانجذاب فيما بينهم هذا شعور لا يمكن
لأحد أن ينكره ولكن في الوقت نفسه علينا ان نستعين بمن يوجهنا بطريقة صحيحة حتى نتبين إن كان هذا
الشعور أو الانجذاب حقيقي أم مجرد انبهار أو أعجاب فقط لمجرد اختلاف الجنس .فكثيرا ما نتوهم هذه
المشاعر على انها حب ولكن تكون في الحقيقة مجرد ميل أو شعور بالأرتياح لشخص ما.

عندها رفعت عبير رأسها ونظرت في عيني أبيها وقالت" هل تعتقد
أنني لا أحبه حبا قويا أو حقيقيا لذا لم
يشعر بصدق محبتي ولم يبادلني أياها بل استهزأ بي!!!
الأب : أنا لم أقل هذا
الأبنة : ماذا تعني إذن؟
الأب مبتسما بحنان : من الواضح جدا أنك معجبة به ومن المؤكد
أنه يحمل صفات بهرتك لهذه الدرجة .. انه
فتى مميز ولا شك.
الأبنة وقد توردت وجنتيها خجلا من أبيها لوضعه يده على بيت
القصيد" :هو فعلا كذلك يا أبي فهو ذكي
وشخصيته قوية ومتدين أيضا "قالت هذا ونظرت الى والدها ترقب
ردة فعله على هذه النقطة لما تعرف من
تقواه وورعه . فطمأنها بابتسامة دافئة وتركها تسترسل وتقول" أيضا
هو نابغة مثلك في الرياضيات "و تابعت
بكبرياء طفولي وفخر" لكن اطمأن لم يحصل ابدا على العلامة
الكاملة مثلي فأنا ابنة أبيها "ثم أنقضت على
ابيها تقبله .فضمها السيد رأفت اليه وتابع درسه الثمين" :حبيبتي
وقرة عيني عبير، هل من الممكن أن تستمر
الحياة بيني وبين أمك ان لم تشعر بأنها دائمة الاحتياج لي وأنها لا
تستطيع القيام بأي أمر ما قبل استشارتي؟

صحيح انها في احيان كثيرة تشير على بأمور ما وأحترم رأيها وآخذ
به ولكن في مجمل الأمر من له الكلمة
العليا ؟؟؟
فردت الفتاة : أنت يا أبي ولكن ما علاقة هذا بذاك ؟؟؟
الأب : يا صغيرتي دائما لا بد أن يسبق الرجل المرأة بخطوات ..
هكذا خلقنا الله كي نكمل بعضنا البعض
حتى تتزن الحياة وتسير في مسارها الطبيعي فكيف يمكن أن تتقدم
المرأة عن الرجل ؟؟؟ هل ينفع هذا ؟؟؟
هل يستوي ؟؟؟ هل يمكن أن أقوم بحل مسألة ما من دون معطيات
؟؟؟ هل يمكن أن أرتب الحل قبل ان اقرأ
المسألة ؟؟؟
نظرت عبير الى والدها باندهش واجابت الاجابة المنطقية فقالت" لا
يا أبي لا يجوز"...
فقال الأب بحنو بالغ" :وهكذا هو الحب يا صغيرتي إن اصاب قلبا
ولم يصب القلب الآخر فهذا لا يعتبر حبا
ولكنه مجرد إعجاب بمن هم مختلفين عنا في طريقة التفكير أو
طريقة التصرف .الم تدرسوا في الفيزياء ان
القطبين المتشابهين متنافران وان القطبين المختلفين متجاذبان؟
فاجابت الفتاة وقد بدأت الصورة الكاملة تتضح لها" بلى يا ابي ..لقد
بدأت افهم الآن ما ترمي اليه"

فنظر الأب بنظرة انتصار وبمنتهى الحنان الى إبنته الصغيرة وسألها" ماذا فهمت ؟؟؟"

عبير :ربما كما تقول هو مجرد أعجاب وأنبهار بشخصية جديدة لم ارى مثلها فظننت أنه حب ثم اردفت

ونظرات الغيظ في عينيها" لكن ماذا أفعل مقابل الاساءة التي أساءها لي بالأمس ؟؟؟"

اجاب السيد رأفت بهدوء ولكن بحزم :الاساءة نبادلها بإحسان ما دامت لم تتعدى الأدب .واضح أنه لم يقل لك

كلمة نابية أو تصرف معك تصرفا غير نبيل أليس كذلك ؟؟؟ فلا تعيري للأمر أي أهمية وتعاملي مع الموقف

وكأنه لم يحدث وواصلي دراستك وتفوقك وتعاملي بشكل طبيعي وعادي جدا معه مثله مثل أي زميل آخر.

دعي البهجة تعم أي مكان تحلين فيه كما تعودت يا صغيرتي.

فأجابت عبير وقد رسمت ابتسامة عريضة على شفيتها" نعم يا ابي أفعل ذلك إن شاء الله"

رأفت" :عبير، يا حبيبتي، أنت تعرفين أنك لا زلت صغيرة والعمر كله أمامك وغدا في الجامعة ستقابلين

الكثير من الناس وعندما يحين الوقت سوف يجمعك الله بمن تستحقين .لكن ارجوك، ركزي الآن على ما

سوف تحققينه بمستقبلك العلمي".

عبير :نعم يا ابي..

رأفت :ولا تنسي ان تعودي إلي ان واجهت اية مشكلة فانا احب ان نفضفض سوية .اتفقنا؟؟

عبير :اتفقنا..

رأفت :حسنا اذهبي الى سريرك ونامي فقد تأخر الوقت..

عبير :الن تقص علي قصة؟؟

رأفت :يا عبير ..كبرنا على القصص..

رأفت :انا لا اكبر معك يا ابي ..ساظل صغيرة .قالت عبير هذا وارتمت في حضنه لتسمعه يقول" كان يا ما كان ..في قديم الزمان ..اميرةA و€_ ___t÷حلوة اسمها عبير .. تنتظر فارس الاحلام الذي سيحملها على حصان ابيض"...

زيارة في العيد

وتخرج اسامة من المدرسة وازداد ولعا بالتنظيم وكثيرا ما كان يضع عصابته الحمراء على رأسه ويحمل

بندقية الصيد التي يمتلكها وكأنها رشاش ثم يسألني" : ما رأيك يا حنين؟ هل انفع ان اكون مقاتلا؟؟ "او يلبس

نظارات شمسية رديئة الصنع اشتراها بما ادخره من مصروفه الضيئل ويقف بثقة مسترجعا خطابات ابي

كفاح الحماسية ويسأل " ام انفع ان اكون قائدا؟؟ "فاضحك واقول : "يا ويلي ان اصبحت قائدا فلن تجرؤ اي فتاة

ان تخرج من منزلها "فيضحك ويقول" لا يا حنين ..هذه مرحلة ومرت ..انا الآن اؤمن اكثر من اي وقت

مضى بوجوب مشاركة النساء في النضال ..هذه معركتنا جميعا
شبانا وفتيات لتحرير مدينتنا من الحصار ورد
المعتدين".
كانت والدته تخاف من هذا التعلق الزائد بالتنظيم اذ كانت تعرف
بخبرتها الطويلة ان وراء الاكمة ما وراءها.
وان الكلام شيء والممارسات على الارض شيء آخر ..وكثيرا ما
كانت تردد عليه" يا بني لا تدخل في اي
حزب ..كلهم يجرون وراء مصالحهم ..كلهم يتخذون العروبة
والاسلام مطية للوصول الى السلطة والحكم"
ولكن عبثا ففي هذا السن تطغى الحماسة على العقل ويصم الولد
اذانه عن سماع اهله حيث يعتبرهم جيلا
قديما متخاذلا .مع كل هذا فان اسامة كان يطيع والدته على
مضض ودخل كلية الهندسة تلبية لرغبتها ولكن
في قلبه كان يستاء ويقول في نفسه ماذا افعل هنا؟؟ مكاني على
الجبهة؟؟ اخواني في العقيدة يموتون وانا
اتفرج على ما يحصل لهم كالنساء؟؟؟ فكان كل شهيد يسقط على
الجبهة او على خطوط التماس دافعا اضافيا
له كي يشعر بالخزي و العار..
ولم تكن خالتي انيسة الوحيدة التي تشك في نوايا التنظيم فقد كان
الشيخ مسعود ايضا يحذر منهم بقوة من دون

ان يسميهم على عادة رجال الدين المتعمقين بدينهم فيقول" ما بال
اقوام تركوا سنة رسول الله ومنهجه واتبعوا
احزابا لا تسمن ولا تغني من جوع؟؟ أيظنون ان النصر ياتي على
يد من يتبع الملحدين .. أيظنون ان النصر
يأتي على يد من لا يصلي ولا يصوم ولا يعرف للناس حقا ولا
حرمة؟؟ "ووصلت اصداء هذه الانتقادات الى
زعيم التنظيم فقام بزيارة خاطفة الى مسجد الرحمة مع نفر من
مرافقيه.
خلع ابو كفاح نعليه واعطاهما لمرافقه زكور كي يضعهما في
المكان المخصص للاحذية، وصلى ركعتي تحية
المسجد بسرعة كنقر الديك ثم اقترب من الشيخ مسعود الذي كان
يرشد رجلا ضريرا الى بعض مسائل
الوضوء وجلس بين يديه على الارض قائلا" السلام
___________عليكم يا شيخنا "..فاجاب الشيخ مسعود" وعليكم
السلام
ورحمة الله وبركاته "ثم عاد ليتم موضوعه مع الضرير.
وانتظر ابو كفاح دقيقيتن وهو يكظم غيظه قبل ان ينفجر ويقول
بنبرة قاسية" سيدي الشيخ ..لعلك لم تعرفني"..
فاجاب الشيخ" وهل يخفى القمر؟؟ وكيف لا اعرفك وصورك
تطالعنا في كل مكان ..في التلفزيونات وعلى
الجدران وحتى على صدور محازبيك الذين يحملون عنك حذائك"

وعند سماع هذه الكلمات خاف الضرير وارتعب واعتذر من ابي
كفاح قائلا" عذرا ابي كفاح ..والله لم
اعرفك ..لو كنت عرفتك لتنحيت جانبا"..
لكن الشيخ مسعود قال له" لم تتنح جانبا يا ابو حسن؟؟ لقد اعطانا
الله درسا في من هو مثلك في سورة عبس
وتولى ..انت الم تنتظر من كان قبلك حتى تستفتيني ؟ لقد رفع الله
الناس بعضهم فوق بعض في هذه الدنيا
ولكنهم يتساوون في مكانين .. في المسجد "..وصمت هنيهة ثم
نظر بقوة في عيني" ابي كفاح "وتابع" وفي
القبر"..
فاخفض الزعيم راسه موافقا وقال" صدقت يا شيخنا ..لكن انت
تعرف اني رجل مشغول ومستهدف من قبل
اعدائي ..لا استطيع ان انتظر طويلا، وظننتك ستسر بمجيئي
اليك." ..
"طبعا مسرور ..كيف لا ..اليوم عيد بالنسبة لنا"..
"شكرا "قال ابو كفاح بتواضع كاذب..
ولكن الشيخ مسعود تابع مفسرا ما قاله وقال" وكيف لا يكون عيدا ..
ونحن لا نراك الا في صلاة العيد مرتين
في العام؟؟ فلا بد وان اليوم عيد وانا لا اعرف"..
فقال ابو كفاح بتوتر وبلهجة اعتذارية " انا اعترف اني مقصر
بحقكم"..

الشيخ مسعود" :مقصر بحقي؟؟ اتراه بيتي؟؟ هذا بيت الله يا زعيم"...

ابو كفاح :لا تقسو علينا يا شيخ ..انت تعرف مدى انشغالنا بادارة الدفاع عن مدينتنا..

الشيخ مسعود :نعم اعرف ..لكن ليتك تدافع عن حياض الدين والعرض كما تدافع عن حياض الارض..

فاستغل ابو كفاح الفرصة ليأخذ زمام المبادرة ويقول :نحن نعرف تقصيرنا في التربية الدينية ، وانت تعرف

اعجابنا بعلمك وتقواك وخطبك ..حتى اني استعير منها في خطبي .

لذا فانا اتمنى عليك ان تعمل معنا كمرشد

روحي للتنظيم ..تحث الناس على الصلاة والصيام ..والاخلاق الحميدة.

فقال الشيخ متعجبا :فقط؟؟ واين العقيدة؟؟

العقيدة؟؟ قال ابو كفاح مستدركا ..طبعا طبعا .. العقيدة اهم شيء ..فلا تنفع العبادة بدون علم" ..قل هو الله احد"..

فقال الشيخ :العقيدة ليست فقط بالتوحيد اللفظي ..العقيدة هي الا توالي الكفار والملحدين وتسوق افكارهم..

العقيدة هي ان تخلص لله في كل عمل ولا تبتغي الاجر والثواب من غيره ..العقيدة هي الا تحكم الابشريعة

الله ..العقيدة هي الا تحلل ما حرم الله وتحرم ما احل الله ..العقيدة
هي الا تسكت عن الحق او تأمر بالمنكر او
تنهى عن المعروف...
فازدادت نظرات ابو كفاح ضيقا وقال" انا لا اؤمن بهذا الفهم
المتزمت التقليدي للدين ..نحن مسلمون نعم..
ولكن ليبراليون ..علينا ان نتمسك بجذورنا وتقاليدنا ولكن ننبذ منها
ما لا يتلاءم مع عصرنا الحاضر ..نحن
نعيش في القرن العشرين يا شيخ ..ولا تنس ان العرف له اعتبار
في الدين وان الاحكام تتغير مع الامكنة
والازمان"
فضحك الشيخ وقال بهدوء وصبر الداعية : انت لست بحاجة الي
اذن ..فها انت تفتي لنفسك ما شاء الله
عليك ..يا بني ..العرف الفاسد ليس له ادنى اعتبار .. ما تقوله
صحيح في الامور التي لا تخالف شرعنا ..اما
ان تقول لي بأن المساكنة حلال لأن المجتمع العصري لا يرى فيها
بأسا فهذا عرف فاسد لا وزن له عند رب
العالمين"..
وهنا شعر ابو كفاح ان الموسى تقترب من ذقنه لما اشتهر عنه من
علاقاته الغرامية المتعددة فايقن ان اللقاء
قد فشل فرمى ورقته الاخيرة وقال" على كل حال يا شيخنا ..نحن
لن نثقل عليك او نصر ان تكون معنا..

ولكن على الاقل ادع لنا في المسجد بدل ان تحرض الناس علينا"..
فقال الشيخ بثقة" يا بني ..انا ادعو للمؤمن بالنصر والثبات وللضال بالهداية وللظالم بالهلاك وللمنافق بالفضيحة ..فانظر اين تصنف نفسك منهم ..ان الدين لا يتغير وخطبي لن تتغير ..يقول الله تعالى" **فلن تجد لسنة الله تبديلا** .."ان شئت ان تنجو من لساني ومن نار جهنم فتغير انت ..ان كنت تظن اني استهدفك بكلامي ..فانا لا عداوة شخصية لي معك ..ولم اذكرك يوما بالاسم ..فما هذا دأب العلماء .انا احذر من طرق الضلال والغواية لا من الاشخاص ..فالاشخاص متغيرون والمبادىء راسخة.
ثم عاد الشيخ مسعود الى الضرير ابي حسن فايقن ابو كفاح ان المقابلة انتهت فانصرف غاضبا وهو يتمتم لمعاونيه" هذا ما ينقصنا؟؟ ان يذكرنا بالاسم؟؟ ان غدا لناظره قريب"..

افول نجمة

كانت السماء صافية في ذلك اليوم المشؤوم والشمس تغمر المدينة باشعتها الذهبية، خرجت العمة انيسة لتنشر الغسيل على الشرفة كعادتها في كل يوم، وتطوعت انا واسامة ان نساعدها في نقل الثياب خاصة وان ابنتها ليلى كانت تشعر بتوعك في هذا اليوم.

"الله يرضى عليك يا اسامة ويقلب التراب بين يديك ذهب "قالت
عمتي ثم غمزتني بطرف عينها وقالت له" الله
يفرحني فيك قبل ان اموت وارى اولادك يسرحون ويمرحون في هذه
الدار"
فاجابها اسامة قائلا" ومن يفكر بالزواج يا امي الآن ونحن في حال
الحرب؟؟؟ "ثم انه قبل يدها وتابع" :لا
تقلقي يا امي عندما يحين الوقت لن اتزوج الا من ترضين عنها".
وكأنها استشعرت ما سيحمله لها هذا النهار فقالت وهي ترمقني
بحنان" لا اريد ان اوصيك بحنين يا اسامة ان
جرى لي مكروه، انت تعرف ان اخي مريض مرضا مزمنا وهي
تحتاج لمن يرعاها ."فابتسمت انا واحمرت
خدودي من الخجل .اما اسامة فنظر الي بعطف وقال" حنين مثل
اختي ليلى يا امي ساضعها في عيوني ان
شاء الله ."ثم حاول تغيير الموضوع فقال" تعالي يا حنين وساعديني
في حمل سلة الغسيل الكبيرة هذه ."ولم
تمض ثوان على دخولنا حتى سمعنا صوت طلق ناري يخرق
الاجواء تبعته انة مكتومة وصوت ارتطام جسم
ثقيل على الارض فهرعنا خارجا لنرى العمة انيسة مضرجة بدمائها
وقد اصابتها طلقة قاتلة في منتصف
جبينها .فلم اتمالك نفسي وارتميت عليها اهزها بعنف :عمتي ..
عمتي ..ولم اشعر الا بيد تخطفني وترمي بي

داخلا ..فرغم فداحة الخسارة كان لأسامة ردود فعل سريعة
وعقلانية .كان يعرف ان الطلقة الثانية ستكون في
رأسي ولم يشأ ان يخسرني كما خسر والدته .ثم انه ادخل جثمان
الفقيدة داخلا وهو منبطح ارضا .وعندما
شعر اسامة ان الكل في مأمن .عاد ونظر الى جثمان والدته وحمل
يدها فقربها الى فمه ولثمها ..ثم خانته قواه
فانهار باكيا كالطفل الصغير وصرخ" لماذا؟ لماذا قتلوك انت؟؟ ما
ذنبك؟؟ "الا انه تجالد وصبر خاصة بعد ان
رآني انا وليلى نكاد نشرف على الانهيار فضمنا جميعا بقبضته
القوية وقال بتصميم" اقسم بالله يا امي ..انه لن
يهدأ لي بال حتى انتقم ممن قتلوك واحدا تلو الآخر. "
وهرع رجال من" التنظيم القومي "كلفوا بحراسة الحي الى داخل
البيت لدى سماعهم اطلاق النار وعويلنا
فأخذوا جثمان الراحلة في سيارة اسعاف تمهيدا لدفنها وأخذوني انا
ووالدي المريض واخي الصغير رائد
وليلى الى مكان اكثر امانا لحمايتنا بذريعة ان هذا المكان لم يعد
آمنا لوقوعه في مرمى قناصة العدو.
وبعد وفاة والدته اضطر اسامة ان يترك الجامعة ليعيل نفسه واخته
سيما وان والدي كان مريضا وبالكاد
يصرف علينا من معاش تقاعده .وكجميع الفتيان في هذا السن لم
يكن عنده خيارات كثيرة سوى ان يحمل

السلاح ويلتحق بالتنظيم وهو امر كان يحلم به منذ زمن على اي حال .ولم ينقطع اسامة عن اصدقائه كليا فقد
ظل يلتقي حسام من آن لآخر، طبعا بالخفية عن اهل حسام الذين رفضوا ان يظل على صداقته معه خشية ان
يؤثر عليه ويجرفه معه الى التنظيم لكن يبدو انهم اساءوا تقدير مدى قوة الصداقة بين هذين الشابين اذ كان
من الأهون ان تفرق بين روميو وجولييت من ان تفرق بينهما .اما ليلى فقد اصابتها نوبات هستيرية دامت
معها مدة اسابيع وكانت تستيقظ في الليل وتصرخ كالمجنونة واقتضى الامر بضعة شهور حتى تتقبل الامر
وتعود الى طبيعتها.

فظاعات من الحرب

وتحت ذريعة الانتقام للضحايا الابرياء الذين سقطوا ضحية قناصة العدو شن التنظيم حملة واسعة امتد فيها
خارج حدوده ليطهر المناطق المجاورة من القناصة وتوسعت حدوده لتشمل عددا كبيرا من القرى في
ضواحي المدينة .وذاع صيت هذا المقاتل الشاب الجديد الذي يعصب راسه بعصابة حمراء ويقتحم المخاطر
دون ان يبالي بحياته ..كان زملاؤه في التنظيم يسمونه رامبو وبعضهم يسميه السوبرمان .اما هو فكان

يرفض ويقول انا" اسامة "اعتز باسمي بدون القاب فهو اسم اصغر
قائد جيش من الصحابة ".ورغم غياب
اسامة عنا لفترات طويلة في جبهة القتال فقد كان يزورنا من وقت
لآخر ليطمئن على اخوته ويساهم في
مصاريفهم ويخصصني من دون الكل بهداياه الثمينة وثقته الكاملة.
انا لا انسى ذلك اليوم الذي زارنا فيه اسامة في منزلنا الجديد وقرر
البيات عندنا، فقد كانت هذه اول مرة
اطلع فيها على دفتر مذكراته الذي يدون فيه كل شيء ..واذكر كم
اصانبي الغثيان حينما اطلعت منه على
بعض فظاعات الحرب الاهلية .يومها رآني اسامة وانا اكاد اتقيأ
لهول ما اقرأ فصرخ في وجهي بغضب
"حنين ..لماذا فعلت هذا؟؟ الا تدركين خطيئة انتهاك خصوصية
الناس؟"
لم اجد ما اجيبه فيه سوى اني قلت "لم تسجل هذه الفظاعات على
دفترك؟؟ كيف تضعها جنبا الى جنب مع
مشاعرك تجاهها " وخانتني الكلمات ..فلم استطع ان الفظ اسمها ..
ولا اخفي عليكم اني حتى وانا اكتب هذه
السطور اجد صعوبة في ذلك ..لقد كان اسمها بالنسبة لي كاسم
المرض العضال استصعب عدم التورية في
الحديث عنه".

وكان لذكر عبير اثر المهدىء على اسامة فقال" حنين يا عزيزتي، هذه هي الحياة فعلينا ان نتقبلها كما هي
بخيرها وشرها، بحزنها وسعادتها ".. ثم نظر الى البعيد وقال" ولو ان السعادة فيها مجرد قطرات في محيط
من الالم ."ان لم اكتب عن الحرب يا حنين فكيف سيتجنبها اولادنا؟؟ هذا الكتاب لك يا حنين، اوصيك به اذا
مت ..انشريه على كل البشر حتى يتعظوا ..لقد كتبت فيه اشياء واشياء وفضحت فيه اسرارا ظلت في طي
الكتمان سنوات طويلة.

فقلت له مستغربة :انت تسجل كل ما تراه؟؟

فقال :نعم يا حنين الا ان هناك مشاهد اقوى من ان تسجل .. فاكتفيت بتسجيلها في ذاكرتي ..اتذكرين الثلاثاء
الاسود يا حنين؟

فقلت بهدوء :كل ايامنا سوداء..

وتابع اسامة دون ان ينتظر جوابي فقال" يومها صب الطرف الآخر حممه علينا وعلى اسواقنا على حين
غرة ..حدثت مجازر في اماكن عديدة واستمر القصف المتبادل لايام متواصلة يحيث امتلأت الشوارع بالجثث
حتى انتنت وانتشرت الامراض والاوبئة ..يومها كلفنا بمهمة يومية من قبل التنظيم وهي ان نلم الجثث من

الشوارع تماما كما يلم شحن النفايات القاذورات عن الطريق .لاول مرة يا حنين اشعر بمهانة الجنس
البشري ..صدقيني كان زملائي في التنظيم قد تعودوا على هذه المناظر فاصبحوا يتعاملون مع الاشلاء
البشرية وكأنها اكوام روث او نفايات بدون ادنى احترام ..فهذا يحمل الرأس المقطوع من شعره وهذا يركل
الاطراف المقطوعة برجله وكانها كرة قدم ..ولكن المنظر الذي لا انساه هو منظر تلك العجوز المقعدة التي
قتل زوجها امام عينيها ولبث في بيتها خمسة ايام حتى انتن وفاحت رائحته وهي لا تستطيع ان تدفنه ..يومها
سمعناها تصرخ من نافذة منزلها ترجونا ان نأخذه ..فنزل" ابو العلاء "وهو المسؤول عن قيادة سيارة جمع
الجثث يومها فاعتذر منها بلباقة وقال" امتلأت السيارة اليوم ..لا يوجد أي مكان لراكب اضافي"..
فنكشت المراة شعرها وشقت ثيابها وقالت ارجوكم" انه يتفسخ والدود بدأ يخرج منه ."..فرق قلبي لها
واصررت على غسان ان نأخذه فرضخ للامر الا انه طلب من الشباب امرا غريبا .قال لهم" خذوا هذه الجثة
وابدلوها بجثة طازجة ..ثم انصرف وهو يودع المرأة المذهولة "..لا تخافي غدا نعود لاخذها ..هذه ما زالت

طازجة فلن تزعجك برائحتها كثيرا" ."..نعم يا حنين ..في كتابي احداث لم اقو على تسجيلها بمداد الحبر."

قالها اسامة بحزن ونظر الي فوجدني ابكي وقد ضممت الكتاب الى صدري..

الصدمة الثقافية

امضى حسام سنة كاملة في كلية الهندسة المدنية في الوطن ولكن الاوضاع ساءت كثيرا وضعف مستوى

الكلية بشكل دراماتيكي عندها قرر حسام السفر الى اوروبا ليكمل تخصصه في مجاله .عارض اسامة قرار

حسام ولكن بدون جدوى فودعه على المطار وهو يدعو له بالتوفيق .ولم تنقطع إتصالانهم عبر البريد وان

كانت تتأخر دوما في الوصول لظروف الحرب .وفي اوروبا شعر صاحبنا بالصدمة الثقافية لرؤيته بلدا

متحضرا يسوده النظام والتكافل الاجتماعي .وشيئا فشيئا بدأ حسام ينسلخ عن ارثه الاجتماعي وينجرف مع

شلة المغتربين العلمانية .. صحيح انه لم يفقد يوما حسه الاسلامي او يرتكب الفواحش مثلهم ولكن ذهنه تبلد

وبدأ التغيير يصبح اكثر عمقا مع الوقت .فتخلى بادىء البدء عن السنن والرواتب واصبح لا يتحرج من ان

يخوض في الشبهات ويعمل بالرخص حتى تلك التي لم يطمئن قلبه لها .وفي هذه الفترة تعرف على

كريستين ..كانت كريستين فتاة اوروبية رائعة الجمال حاول كل
زملائها في الجامعة التقرب منها ولكن قلبها
لم يخفق الا لهذا الشاب الاسمر القادم من الشرق .هل احب حسام
بدوره كريستين؟ هذا امر لم استطع اكتشافه
ولكني ارجح ان حسام على رغم من التغيير الذي اصابه لم يفكر
ولا للحظة بان يتزوج فتاة من خارج محيطه
الذي نشأ فيه ولكنه وجد في كريستين وسيلة تقربه الى هدفه من
الحصول على الجنسية وترسيخ اقدامه في
هذا البلد .تزوج حسام كريستين على سنة الله ورسوله ولكن كريستين
رفضت الدخول في الاسلام واصرت
ان يسجل عقد الزواج رسميا في الدولة حتى تحفظ حقوقها كما قالت
ففي بلاد الغرب لا ثقة مطلقة باحد لا
بين الزوج والزوجة ولا حتى بين الام واولادها .ولما كانت كريستين
ابنة مقاول كبير فقد نجحت في مساعدة
حسام على العمل في شركات ابيها في مراكز ادارية حتى قبل ان
يتخرج وارتقى في السلم الوظيفي الى اعلى
المناصب وجمع ثروة لا بأس بها.
وانقطع كل رابط بين حسام و بلده الام الا من رسائل يرسلها الى
الاهل شهريا والى اسامة ..كان الاهل
يحثون حسام دوما على العودة الى بلده ما ان ينتهي من دراسته
وكان هذا الاخير يعدهم ويؤملهم وهو لا

ينوي هذا في قرارة نفسه ولم يفاتح احدا بما يجول في خاطره الا
صديقه المقرب اسامة .لا ادري تماما طبيعة
المراسلات بينهما ولكن اسامة سجل في مذكراته جزءا منها..
يقول حسام في مقطع من احدى رسائله :لماذا اعود يا اسامة؟؟
لاقف في طوابير الخبز والبنزين؟؟ لاقبل يد
ابي كفاح وابي بلوط للحصول على وظيفة؟؟ لاعيش في بلد لا
ينتمي الي ولا انتمي اليه؟ ليتربى اولادي على
اصوات الرصاص والصواريخ كما تربيت انا؟؟ لا استطيع يا
اسامة ..لقد تعودت على النظام ..تعودت ان
آخذ حقي حتى آخر بارة ..تعودت ان احتكم الى القانون بالحق
حتى ولو ضد رئيس الجمهورية .ان كنت
صديقي يا اسامة فعليك ان تتفهمني وتدعو لي بالتوفيق..
لكن اسامة لم يكن من النوع المجامل فاجاب :انظر يا حسام ..انا
صديقك لكن الصديق من صدقك ..ان حالة
البلاد التي تعيش فيها كانت مثلنا واسوأ وخاضت حروبا اهلية كثيرة
ولو ان الشرفاء فيها تركوها الى بلاد
اخرى افضل لما كانت وصلت الى الازدهار الذي تعيش فيه الآن ..
بيدي وبيدك يا حسام سنقوم بالتغيير ..عد
الى وطنك ارجوك..

الإمام الصغير

ولم ينقطع اسامة عن الصلاة رغم انهماكه في شجون الحرب وكثيرا
ما كان اصدقائه يصدمون لليقين الذي
يتحلى به حين يترك بندقيته في عز احتدام المعارك ليقوم ويربط
عصابته الحمراء على رأسه ويصلي وسط
ازيز الرصاص والقذائف .ويروى عنه – وهذه رواية لم اتاكد منها –
انه اصيب مرة في كتفه بشظية قذيفة
هاون سقطت قرب موقعه على الجبهة ولكنه لم يقطع صلاته ولم
يشعر بالالم الا بعد انتهاء الصلاة .وشكل
تدين اسامة القوي الذي لم يفارقه لحظة واحدة دافعا قويا للحنين
الذي يراوده الى جامع الرحمة المجاور
لمنزله القديم الذي ترعرع فيه متتلمذا على يد الشيخ مسعود .ولما
بلغ الحنين اوجه طلب اسامة مأذونية من
قائده المباشر في الجبهة" ابو العلاء "وذهب الى موقع منزله القديم
ليستعيد الذكريات التي تعبق في ارجاء
مرتع الطفولة والمراهقة .دخل اسامة الى المنزل المهجور ليراه كما
تركه في تلك الليلة المشؤومة سوى ان
الجرذان انشأت فيه مقرا دائما لها تسرح فيه وتمرح ثم خرج الى
الشرفة التي سقطت فيها والدته فركع على
الارض وبكى بكاء مرا ليقف بعد ذلك بشموخ وينظر الى بساتين
الليمون الممتدة على مد النظر نظرة تحدي

مجددا العهد بالانتقام لها .وبعدها دلف اسامة الى مسجد الرحمة العتيق وتأمل قبته الخضراء التي حولها
مسلحو التنظيم الى مكعب مدعم باكياس الرمل واتخذوها متراسا يترصدون العدو فيه في ايام الاشتباكات
ورفع نظره متتبعا اثر مأذنته الحجرية فرآها قد احدودبت بفعل عوامل الزمن و الحرب وعاودته ذكريات ايام
الصبا حينما كان صوت الشيخ مسعود يلعلع في ارجاء المسجد، يبكي المصلين حينا ويضحكهم حينا آخر
ونظر الى باحة المسجد الذي كان يفيض بالناس كما يفيض الجدول بمياه النهر فلم ير الا عددا قليلا من
المصلين لا تتجاوز اعدادهم اصابع اليد وميز من بينهم الحاج" ابو النور "الذي افترش كعادته ارض المسجد
ونام عليها .عادت ذكريات اسامة الى خطب الشيخ مسعود وتذكر كيف كان الشيخ يلاحظ سهوات ابي النور
في خطبه فيرفع من نبرته ليستسيقط هذا الاخير مذعورا فيسبح ويستغفر قبل ان تداهمه نوبة نعاس اخرى بعد
خمس دقائق .كانت اياما جميلة...
تقدم اسامة برفق من" ابي النور "وسأله عن الشيخ مسعود وفيض المصلين الذين كانت تغص بهم اروقة
المسجد .فتنحنح الحاج ابو النور وسعل سعالا جافا كاد يبصق فيه ما في جوفه لولا انه تذكر انه في بيت الله

ولا يجوز ان يقوم بهذا العمل فاخرج من جيبته المهترئة منديلا قديما اكل عليه الدهر وشرب فبصق فيه وقال"
الشيخ مسعود يا ابني توفي منذ سنتين وبعد رحيله انفضت جموع المصلين تباعا خاصة بعد ان بدأ هذا
المسجد يتعرض للقنص وقذائف العدو .. ثم اشار باصبعه النحيل الى زجاج مهشم وبضعة ثغرات في الجدار
الاسمنتي وتابع قائلا" في الاسبوع الفائت اخترقت رصاصة هذا الزجاج واصابت احد المصلين في رأسه
وتابع بلا كثير اهتمام فقال" من حسن حظه ان المقبرة ملاصقة للمسجد ..لقد صلينا عليه هاهنا ودفناه في
المقبرة ..فالشهيد لا يغسل يا بني "..لم يكن الحاج ابو النور يوفر فرصة يبرهن يها عن علمه وتقواه
للآخرين، وكان الكبار في السن من امثال الحاج ابو النور لا يعيرون كبير اهتمام للموت فهم قد شهدوا امامهم
رحيل كل اصدقائهم وذويهم وباتوا يترقبونه في كل ساعة ..فلم يعد هذا الموضوع يخيفهم ..وزادت الحرب
العبثية من لا مبالاتهم هذه لوفرة مناظر الجثث المرمية على جانبي الطريق يوميا ..لا بل ان الحاج ابو النور
بالذات يقضي امتع لحظات ايامه الاخيرة في المقبرة يسامر اصدقائه القدامى ويلقي عليهم السلام واحدا تلو
الآخر...

المهم ، فهم اسامة من فحوى كلام ابو النور ان معظم الائمة
استنكفوا ان يأخذوا مكان الشيخ مسعود في امامة
مسجد" الرحمة "نظرا لخطورة موقعه على خطوط التماس .ولكن فهم
اسامة أن الله قيض لهذا المسجد اماما
درس في كلية الشريعة وتخرج منها حديثا فتاقت نفس اسامة
ليتعرف عليه وسأل عنه ابا النور فاشار الى
شاب في مقتبل العمر بلحية متوسطة الطول ووجه بيضاوي اسمر
يجلس في المحراب ممسكا بمصحف
صغير يتلو فيه.
تقدم اسامة من الشيخ ثم جلس القرفصاء امامه بهدوء وقال " السلام
عليكم يا شيخنا"..
فرفع الشيخ نظره عن المصحف وقال" وعليكم السلام يا اسامة"..
فاستغرب اسامة وسأل الشيخ" اتعرفني؟؟ "ثم حدق جيدا فرأى فيه
قاسم الصديق القديم ..فهتف بحبور" قاسم؟؟
اهو انت ؟؟ لم اعرفك فهذه اللحية غيرتك كثيرا"..ثم صمت
للحظات وتابع" لكن بصراحة هي تناسبك وتمنحك
هيبة ووقارا"
ضحك قاسم وافتر فمه عن اسنان مرصوصة صقلها سواكه الدائم
بعود الاراك وقال" لم انقطعت عنا يا
رجل؟؟ اهكذا تنسى اهل محلتك؟؟"

فاجاب اسامة" كان بودي ان اطل عليكم منذ مدة ..ولكن لم يدم
اطول وقف لاطلاق النار اكثر من ثلاث
ساعات ..صدقني اني بالكاد ارى اهلي واخوتي"
فاثار الموضوع اهتمام قاسم وقال بصوت مرتبك" وكيف حال اختك
ليلى؟؟ هل تجاوزت محنة فقدان
المرحومة"..
فهز اسامة راسه وقال" اظن ذلك ..انا لم اعد اراها كثيرا كما قلت
لك فقد وضعتها في عهدة خالي واكتفي
بالانفاق عليها "ثم صمت اسامة هنيهة وكأنه يحاسب نفسه وعاد
ليقول" سامحني يا قاسم لقد قسونا عليك من
اجل امر سخيف ..كنا اطفالا يومها"..
فابتسم قاسم وقال" لا بأس ..لا تندم ..فقد كانت نصيحتك لي في
محلها ..فقد عدت يومها بفضلك الى دروس
الدين كما نصحتني كي افهم الكلمات الصعبة التي كنت تقولها
وتركت المستر سميث خاصة بعد ان بانت لي
اهدافه الحقيقية من وراء الدعم الذي قدمه لي"
فابتسم اسامة وقال وهو ينظر الى البعيد وكأنه يرى الماضي امامه
"كنت اظن نفسي خازن النار يومها"..
فتنهد قاسم وقال " يومها فقط؟؟ اسمعني يا اسامة لا تظن اني
منعزل في مسجدي هذا عن الناس وعما يحدث

من حولي ...انا اسمع بك يوميا وببطولاتك في ساحات القتال ..
لكن صدقني الطريق الذي تمشي فيه خطأ..
خطأ كبير"..
فغضب اسامة وقال" خطأ ؟؟؟ وهل تريدني ان اجلس مثلك في
المسجد واتفرغ للعبادة والدعاء عسى الله ان
ينصرنا ونحن مكتوفي الايدي ..اسمع يا قاسم ليس الزمن زمن
دراسة وفقه و عبادات بل الزمن زمن قتال
وجهاد وتضحية واستشهاد ..ضع كتبك جانبا واحمل بندقية وكفنا
واتبعني"
فصمت قاسم هنيهة ثم اجاب بهدوء" الكفن حملته منذ زمن يا
اسامة ..منذ ارتضيت ان اكون اماما لمسجد
على خطوط التماس ..لكني لن استبدل كتاب الله بالبندقية ..اتظنني
اتنسك هنا يا اسامة ؟؟ اتظنني اقرأ القرآن
فقط لانال ثواب الذكر؟؟ لا يا أسامة في هذا الكتاب "واشار الى
المصحف" يكمن حل كل مشاكلنا ..في هذا
الكتاب يخاطبنا ربنا فردا فردا ويحدد واجباتنا ..فكيف لي ان اقاتل
قبل ان افهم ماذا يريده ربي مني؟؟ للامور
اولويات يا اسامة ..والظلمات كثيرة والنور واحد ..نحن نعيش في
فتن كقطع الليل المظلم يصبح فيها الحليم
حيران ..فنحتاج الى نور يضيء ظلمتنا ولا ارى النور الا بهذا " **يا
أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم**

وأنزلنا إليكم نورا مبينا."
ولكن اسامة كان قد اصم اذنيه منذ زمن على سماع هذا الكلام
فقال" بماذا تريد ان تقنعني؟ ان علينا ان
نتفرغ لفهم القرآن وتدبره في الوقت الذي يهاجمنا فيه اعداؤنا
ويستبيحون مدينتنا؟؟"
اجاب قاسم بهدوء "لو انهم استباحوا مدينتنا فسأكون او من يحمل
السلاح بوجههم ..ولكن ان كنت تطلب مني
ان اقتنص اطفالهم لأنهم يقتنصون اطفالنا او ان نقصفهم عشوائيا
لانهم يقصفوننا كذلك فاسمح لي ان اخالفك
الراي ..فليس هكذا يكون الدفاع عن مدينتنا ..نحن ننحدر لمستواهم
ونمارس فظائعهم ..إن كان عدوي
خنزيرا يستمتع بأن يتضمخ بالطين والقذارة فلن انزل الى مستواه
والوث روحي بالطين مثله"..
اسامة" :لكن العين بالعين والسن بالسن"..
قاسم :نعم من قلع عينك اقلع عينه ..لكن من قتل ابنك تقتل ابنه؟؟
من جرح جارك تجرح جاره؟؟ وماذا فعلت
ب" **لا تزر وازرة وزر اخرى** "؟؟ ام انك تقرأ ما يناسبك من القرآن
كعادتك كي تثبت وجهة نظرك..
فغضب اسامة وقال" انت لن تفهم ابدا ..هذه حرب وليس هناك من
حرب نظيفة ..يجب ان نقطع اشجارهم

حتى نردعهم ان يقطعوا اشجارنا ..نقتل اطفالهم حتى نردعهم عن قتل اطفالنا" ..

قاسم ياستهجان" :حقا؟؟ نعتدي على نسائهم انتقاما من اعتدائهم على نسائنا؟؟ نمثل بجثثهم ونرسم عليها الهلال حتى يرعووا عن التمثيل بجثثنا؟؟ اسمع يا اسامة ان الاسلام لم ينتصر وينتشر بين الناس الا عندما تعاملنا مع عدونا باخلاقنا نحن لا باخلاقهم ..تذكر صلاح الدين وكيف عفا عن اهل القدس من اهل الكتاب مع ان الصليبيين جعلوا دماءنا انهارا حين احتلوها.

فقال اسامة" صلاح الدين؟ اين هو صلاح الدين؟؟ لقد انقضى عصر الصحابة والتابعين والسلف الصالح والفتوحات والابطال ..نحن نقاتل اليوم دفاعا عن وجودنا وعن حقنا في الحياة ..وعدونا شرس لا يردعه رادع ...ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب"..

فرفع قاسم المصحف عاليا وقال " بهذا يا اسامة يعود جيل صلاح الدين ..بهذا الكتاب الصغير الحجم الرفيع القدر ..بهذا الكتاب الذي هجرتموه انتم ومسلحيكم وتنظيمكم"....

"غير صحيح "قال اسامة واشار الى مصحف فضي يتخذه قلادة وقال" نحن كلنا نقاتل باسم القرآن وصيحة الحرب عندنا الله اكبر"..

فهز قاسم رأسه باسى وقال" لم ينزل المصحف ليزين القلائد والبيوت
و السيارات ولا ليتخذ دواء لألم البطن
والضرس بل نزل ليضع منهاجا لحياتنا ..اسامة ..ممكن تسمح لي
وتقول تحت اي راية يقاتل حزبكم؟ من اين
يستقي مبادئه؟؟ ما هي اهدافه؟"
فاجاب اسامة بثقة وكأنه فطن الى نية قاسم باحراجه :القومية
العربية لا تتعارض مع الاسلام ..الاسلام مجد
اللغة العربية وجعلها لغة كتابه الكريم ..ولغة اهل الجنة.
قاسم :نعم حبب الاسلام الينا حب العربية والوطن و لكن لم يقل لنا
ان نقدمهما على احكام الدين وان نحتكم
الى قوانين الاشتراكية وتشريعاها ..انس امر القومية ..كيف ترفعون
اعلام دول تنادي بالالحاد؟؟
اسامة وقد بدأ يشعر بالخزي :انهم اصدقاؤنا ..يساعدونا ويساعدون
المستضعفين في الارض لنيل استقلالهم..
هذا تقاطع مصالح..
قاسم :ترى لسواد اعينكم يساعدونكم؟؟ ذكرتني بقصة ذلك الرجل
الذي اشترى سهما من شركة مساهمة يملكها
امير البلد فذهب في اليوم التالي الى قصره وطلب من الحراس ان
يسمحوا له بمقابلة شريكه .اسامة، انهم
يفرضون عليكم سياستهم ويلعبون بكم كيفما شاؤوا ..تقاطع
المصالح يكون بين دولتين بنفس القوة وليس بين

طرف قوي وطرف ضعيف .. انتم لستم حلفاءهم بل عبيدهم ..انهم يعاملوكم كما كنت تعاملنا في شلتك يا
اسامة...
اسامة بغضب :الن تنسى الماضي؟؟ قلت لك كنت صغيرا ..انت ما زلت تحقد علي يا قاسم..
قاسم :لا يا اسامة ..انا اريد ان اوقظك فحسب ..انتم مسيرون من المعسكر الشرقي ...عليك ان ترى هذا كما
يراه كل الناس بوضوح..
اسامة :الدول التي تتكلم عنها تمدنا بالسلاح ..بدونهم كنا لنحارب بالسيوف..
قاسم :شخصيا افضل ان اقاتل الدبابة بالسكين من ان ارفع راية دول تحارب الاسلام في الغرب والشرق او
امد يدي لاصافح يدا تلوثت بدماء المسلمين.
فصمت اسامة لوهلة ثم قال :كلامك جميل يا قاسم .كلامك جميل .. ولكنه غير واقعي اطلاقا .. اعداؤنا
شياطين ونحن لسنا بملائكة ..ثم انك لا تقدم لنا حلولا واقعية وبديلة..
فقال قاسم يهدوء :اعترف اني لا املك عصا سحرية ..ولذا تراني منكبا على القرآن والسيرة ..فقد قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم" لقد تركت فيكم ما أن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي .."ربما لا

اعرف طريق النور بعد ولكني على الاقل استطيع ان اميز الظلمات
من الآن فاتجنبها ..وانا لست مستعجلا
على شيء فافضل لي من اخسر مدينتي لا بل العالم كله من
اخسر نفسي .ثم احنى قاسم راسه وقرأ قوله
تعالى" **يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله يقلب سليم** ".ورفع
نظره لينظر الى ردة فعل اسامة فلم يجد
امامه الا ابو النور يكح كحته المعهودة ويبصق في منديله
الممزق..

وجها لوجه

بمجرد دخوله الى التنظيم ذاع صيت اسامة كمقاتل شرس لا يهاب
الموت، ووصلت اخبار بطولاته الى
الطبقات العليا من التنظيم حيث وصلت الى اسماع الزعيم" ابو
كفاح "شخصيا .وكان يوما مميزا في حياة
اسامة حينما ابلغ ان رئيس التنظيم ابو كفاح يريد ان يراه بصورة
شخصية فتأنق ولبس افضل ما عنده وكأنه
ذاهب الى موعد غرامي، استقبلته سكرتيرة تلبس زيا عسكريا عرف
فيما بعد ان اسمها نيرفانا ورمقته
باعجاب طوال مدة النصف ساعة التي اجبر فيها ان ينتظر الزعيم
ريثما ينتهي من اجتماعه مع شخصية
مهمة على ما يبدو .. ومن خلف الباب المغلق سمع اسامة بسمعه
الحاد بضع عبارات اثارت استغرابه ..كانت

اذناه تلتقطان عبارات طرف واحد من الحوار وهو الزعيم الذي تعود اسامة على نبرة صوته من خلال
خطاباته اما الشخص الثاني فقد كان صوته خافتا بالاضافة الى انه يتكلم الانكليزية.
وكان من بين بعض العبارات المتقطعة التي التقطها اسامة وسجلها في مذكراته:
-نحن ما كنا ____ شرقا لو فتحتم لنا ..____ لكن لا احد فيه ____ من العقل يوافق ان ____ وتدعموا
الخصم في ____ نفسه.
-هذه قضية لا نختلف____ ، العلمانية وفصل الدين عن ____ هدفي قبل ان ____ هدفكم...
-لا ____ لدي من ان ____ به ولكن ليكن ____ سريا في عرض البحر على متن _____ فلا استطيع
ان اواجه ___ بلقاء مع ____ الامة.
ثم انتهت المقابلة وكان اسامة متلهفا لرؤية الزعيم وجها لوجه بعد طول انتظار وبدرجة اقل لمعرفة هوية هذا
الضيف الغريب لعل هذا يفسر له جزءا من الكلام غير المفهوم الذي سمعه .ولكم كانت دهشته قوية حينما
رأى المستر سميث استاذ الانكليزي في مدرسته يخرج من مكتب الزعيم فتلاقت النظرات ولمس سميث في

عيني اسامة نفس نظرات التحدي التي عهدها منه في فترة مراهقته
مما اثار غيظه ولكنه كان ثعلبا كما يردد
اسامة دوما يعرف كيف يخفي مشاعره خلف نظاراته السميكة لذا لم
يتوانى عن تحيته باقتضاب وبخبث دفين.
وادخل اسامة على الزعيم ليفاجىء برؤية مكتب فخم كأنه يعود الى
امير من امراء القرون الوسطى وفيه
حوض كبير للسمك النادر في منتصفه .وكانت هذه اول مرة يرى
فيها اسامة بطل طفولته وجها لوجه
ففوجىء برؤيته مختلفا عما يعهده اذ لم يكن متوقدا حاد النظرات
كما يراه في الصور او في الخطابات
الجماهيرية بل خاملا الى حد بعيد .. وربما يعود هذا الى قنينة
الويسكي التي يركنها قربه والتي وصلت الى
منتصفها ..الا انه تخطى استغرابه وحياه التحية العسكرية قائلا
"تحياتي حضرة الزعيم"..
رفع ابو كفاح عينيه الحمرواتين للحظة الى وجه اسامة و اشار اليه
ان يجلس ثم عاد ليتابع خريطة وضعها
على مكتبه وقال:
انت اذن هو البطل اسامة؟؟ ظننت اني سأرى امامي رجلا ضخم
الجثة مفتول العضلات..
"الشجاعة هنا سيدي الرئيس "واشار الى قلبه..

"صدقت "..قال ابو كفاح هذا ثم اردف" لكن فرق بين الشجاعة
والتهور ..عليك ان تكون اكثر انضباطا"
"سيدي الرئيس ..لم افهم"..
سحب ابو كفاح سيجارا كوبيا من علبة مذهبة قربه ووضعه في
فمه ..ثم قال متبجحا" هذه العلبة تقدمة من
فيدل كاسترو نفسه "..وشعر يدخن وينفح في الفضاء .. ثم سرح
في البعيد..
"سيدي الرئيس ..ماذا تعني بالانضباط؟؟ "عاد اسامة ليكرر..
فتنبه ابو كفاح لسؤال اسامة وقال" آه صحيح ..اسمع ..هناك زميل
مخضرم لنا في الحزب ..عليك ان تتعلم
منه مناقبية المهنة ..انه قائد سرية القناصة عندنا ... ابو صقر"
فتهلل وجه اسامة حبورا لدى سماعه هذا الاسم فقد ذاع صيت ابي
صقر وبطولاته في صفوف التنظيم حتى
اصبح حلم اسامة ان يقابله فكيف وهو يبشر الآن بأنه سيعمل تحت
امرته.

صدمة القتيل الاول

ساد الصمت الدقائق الاولى من لقاء اسامة مع ابي صقر رغم
محاولات اسامة الحثيثة للتقرب منه ..لكن شيئا
فشيئا انفكت عقدة ابو صقر وبدأ بالكلام وهو يعبث بلحيته الطويلة
الكثة قائلا" اعذرني ..لم ار احدا منذ فترة

طويلة "..ثم ضحك وقال" لدرجة اني بت اخاف ان انسى الكلام ."
وانتهز اسامة فرصة ابتسامة ابي صقر ليكر
على مسامعه ما يعرفه من اخبار بطولاته منذ كان صغيرا ولكن لم
يبد على هذا الاخير أي علامة للزهو
والفخر فعلى عكس الزعيم ابو كفاح لم يكن ابو صقر يبالي كثيرا
بالشهرة او التفاخر بل بدا ان محط اهتمامه
الوحيد هي بندقيته التي كان يحرص على تنظيفها بعناية يوميا .
ومرت ايام طويلة ومملة كان اسامة يتدرب
فيها على يد ابي صقر دون ان يفلح في كسر حاجز الصمت
الرهيب بينهما الى ان ادرك اسامة مع الوقت ان
اقرب طريق الى قلب أبي صقر هي بندقيته فلاطفه وقال " ابو
صقر؟؟ اراك تحنو على البندقية وكأنها
ابنتك"..
فنظر اليها بفخر واجابه" وكيف لا؟؟" زوزو "ترافقني منذ كنت في
سنك ..بت اشعر انها جزء لا يتجزأ مني..
احيانا استيقظ في الليل واتحسس وجودها قربي خشية ان تكون قد
فرت مني"
فتعجب اسامة وقال" ياه الى هذا الحد؟ لكن لم افهم ..هل كانت
هناك حرب في بلادنا في ايام شبابك؟؟"
فاجاب ابو صقر دون ان يرفع نظره عن بندقيته" يا بني، الحرب
في بلادنا كطير العنقاء تولد من رمادها كل

عشرين عاما ..نحن شعب يهوى الحرب ..ان لم يجد شيئا يتقاتل
عليه ..يحارب على اللاشيء"
واطل اسامة من خلال نافذته فرأى منظر الشمس تتحدر نزولا نحو
البحر بهدوء وسكينة كالعاشق المشتاق
لضم معشوقته الى احضانه .فتنهد اسامة اذ تذكر حبه الوحيد وقال
"ابو صقر ..الم تحب في حياتك؟؟ "ثم اكمل
مبتسما ابتسامة حزينة" طبعا غير زوزو؟؟"
بالطبع احببت ..لكن من هي هذه الغبية التي تقبل بي وانا احمل
كفني على يدي؟ .ثم ابتسم ابتسامة واسعة
وكأنه يرى امام عينه مشهدا من الماضي وقال :لقد اصابت قلبي
في الصميم؟
فضحك اسامة وقال" : كانت قناصة ماهرة ..اذن"
لم يسمع ابو صقر تعليق اسامة من فرط اندماجه بالمشهد الذي يراه
في خياله وتابع" لكنها قالت لي؟؟ ماذا
ستهديني شبكة زفافي؟ عقدا من الخرطوش؟ ..من يومها صممت
الا انظر لفوق ..الآن من نافذتي في اعلى
طابق في هذا البرج ..انا اعلى من الكل ..كلهم دوني ..وتحت
رحمة بندقتي زوزو "..ثم هز برأسه وكأنه
ينفض عن ذاكرته غبار الماضي والتفت الى اسامة فقال" لكن لم
تسأل؟"

فهز اسامة رأسه بأسف وقال" وانا ايضا ليس لدي الا البندقية والخرطوش ..ولا اريد ان انظر لفوق"...

"لا يا بني انت مختلف عني ..انت متعلم ..غدا تلقي الحرب اوزارها وتكمل تعليمك وتتزوج اجمل الفتيات"..

"نعم ويصبح الغراب ابيضا ويدخل الجمل في سم الخياط"..

انت اكثر تشاؤما مني يا رجل ..الا تعتقد ان الحرب ستنتهي؟؟

قد تنتهي على الارض ولكنها في قلبي ستعيش الى الابد ..لقد تغيرت يا ابو صقر ..تغيرت مع اول انسان قتلته ..اكاد لا انسى منظر الدماء يتفجر من رأسه عندما اصبته برصاصتي.

آه لا تخف" ..صدمة القتيل الاول "من العوارض المعروفة عندنا معشر القناصين وتابع باستهزاء" نقل فؤادك ما شئت من الهوى ما الحب الا للقتيل الاول "..لكن بعدها تتعود وتصبح القضية عندك عادية جدا ..وفي هذه اللحظة خرج شخص من مخبأه في الشارع المقابل حذرا يترقب فجهز ابو صقر بندقيته واصابه في الصميم ثم قال" ارأيت ..يصبح الامر سهلا وكأنك تقتل القطط "..ثم التفت الى بندقيته وقال" برافو عليك يا صغيرتي"..

واضاف خطا الى مئات الخطوط في الجدار قربه.

طوابير الخبز

كان لكل حزب او ميليشيا في وطني جناح خاص مؤلف من النخبة
الذين لا يشك الزعيم في ولائهم او في
شجاعتهم .وفي حالة التنظيم كانت" سرية جهنم "هذا الجناح وعلى
رأسها يقبع وحش جزار يكفي سماع اسمه
حتى ترتعد فرائص الجميع خوفا ورعبا فقد كان البطش هوايته والقتل
حرفته .. يقتل لمجرد الشك ..لمجرد
الاشتباه ..المتهم عنده مجرم حتى تثبت براءته ...ذاك هو ابو
الجماجم.
وكانت ازمة الرغيف ازمة يومية في مدينتنا تعود الناس عليها كما
تعودوا على مناظر النفايات المتكومة
والجثث المتفحمة ..لكن ماذا يخطر على بالكم حينما اقول ازمة
خبز؟ طوابير من الناس في صف طويل؟؟
لا لم يكن هناك من طوابير خبز عندنا ..فالطابور يحتاج الى نظام
وفي بلادنا انهارت الدولة وانهارت معها
كل مؤسساتها في الاشهر الاوائل لاندلاع الحرب ..وانهار معها أي
اثر للنظام او احترام الآخرين وحتى
احترام الذات ..كنا نعيش في بحر متلاطم الامواج :السمكة الكبيرة
تأكل الصغيرة ..كنا نعيش في أدغال
موحشة تحكمها شريعة الغاب فإن لم تكن فيها ذئبا اكلتك الذئاب ..
حاولت الميليشيات الموجودة في المدن قدر

الامكان ان تسد ثغرة غياب الدولة ..ولكن لم يأخذ الناس الكثير من
الوقت حتى يتبين لهم ان رجال الميليشات
لا يأبهون الا لمصالحهم الخاصة وأن حاميها حراميها.
كان منظرا فريدا من نوعه ..بمجرد ان يؤذن الموذن لصلاة الفجر
يبدأ الناس بالتجمهر حول افران الخبز
والتدافع للوصول الى لقمة تسد الرمق .مناكب تتعارك ووتتدافع ..
رؤس تعلو وتنخفض كأمواج البحر
الهادر ..اصوات غاضبة تنهمر على جارنا البائع المسكين" ابو
سعيد "الذي لا يفتأ يردد بشكل روتيني" طولوا
بالكم ..كلكم سيأتيه الدور "..حتى لو كانت كمية الطحين عنده لا
تكفي الا ربع المتجمهرين .كان ابو سعيد
رجلا كبيرا في السن ضعيف البنية ومع ذلك فقد حباه الله بقدرة
هائلة على العمل والاحتمال مصداقا للمثل
الشعبي" يضع سره في اضعف خلقه."
ومن حس حظي ان الفران ابو سعيد كان صديق الوالد منذ زمن
بعيد لذا فقد كان يأخذ بعين الاعتبار وضعه
الصحي الذي اجبره على ملازمة المنزل و يحجز له ربطة خبز
يوميا يرسلها لنا في المساء مع ابنته مريم
حين قدومه الى منزله .الا ان تدخل مافيا التنظيم ممثلة بسرية جهنم
في توزيع الخبز منعه من أي اجراء من

هذا النوع فبالكاد اصبحوا يسمحون له أن يأخذ لاسرته كفايتها كل
ليلة .لذلك وجدت نفسي ولاول مرة
مضطرة انا البنت الحيية التي لم تلمس يدها يد شاب قط ان ادخل
في معمعة من الرجال والنساء جعلت
الرغيف الساخن نصب عينيها .كان منظري يومها مضحكا مبكيا ..
خطوة الى الامام وخطوتين الى الوراء..
كشخص لا يعرف السباحة القى به في امواج متلاطمة .لا اعتقد
ان الرجال الراكضين وراء لقمة عيشهم
كانوا يبالون بالاجساد الانثوية التي تزاحمهم فقد كانت اياما صعبة
كيوم الحشر كل هم الانسان فيها ان ينجو
بنفسه ..لكن ما يخيفني كانت نظرات رجال ابو الجماجم التي كانت
تخترق الثياب وتعليقاتهم البذيئة حيث لم
تنج أي فتاة جميلة من تحرشاتهم.
انزويت وحدي بعيدا عن الجموع وانا انتظر بأمل يائس ان تخف
الجموع ولكن كلما انتظرت اكثر كلما ازداد
حجم الكتلة البشرية التي تناضل من اجل لقمة عيشها .فدعوت الله
تعالى ان ييسر مهمتي ويرسل لي من
يساعدني في هذه المهمة الصعبة كالغريق الذي يتمسك بقشة من
الامل .ولم تمض لحظات حتى استجاب اكرم
الاكرمين لي وارسل الي اسامة الذي صودف ان اطل على منزلنا
يومها فأخبره والدي بما ذهبت اليه..

سمعت صوتا يناديني من الخلف" :حنين ماذا تفعلين هنا؟؟"
فانهمرت دمعة من عيني وقلت" انتظر حتى يخف تزاحم الرجال فاتقدم"..
شاهدت الغضب في عيني اسامة كما لم اشاهده من قبل ورأيته يربط عصابته الحمراء على رأسه ثم يخترق
الجموع بقوة كما تشق السكين الزبدة وسط دهشة الناس ورجال التنظيم لقوة هذا البطل المقدام .. وانبرى احد
رجال سرية جهنم ليوقف اسامة ويلزمه بالدور فما كان من اسامة الا ان وكزه بقبضته ضربة خفيفة طار
على اثرها المسكين وحط ارضا .. وارهب هذا المنظر بقية الرجال الذين طالما سمعوا بهذا البطل ذي
العصابة الحمراء على جبهة القتال ولكن لأول مرة يرونه رأي العين .وفي لمح البصر كان كيس الخبز في يد
اسامة فسلمني اياها ثم همس لي" :من الآن فصاعدا لا تحملي أي هم " ..فنظرت في عينيه نظرة شكر وتقدير
لشهامته وقلت له" وكيف احمل أي هم ومعي القوي الامين؟؟ شكرا"..
لكن في مكان آخر غير بعيد عنا كان ابو الجماجم يرمق اسامة بعينين حاقدتين ..فقد رأى لأول مرة من
ينافسه على عرش القوة والولاء للزعيم ...واقسم في نفسه الا يفوت عليه فرصة الانتقام منه وازاحته عن

الدرب في اول فرصة مناسبة.

المنظر من فوق

و من نوافذ برجه العاجي كان الزعيم يرمق ما يجري على الارض .. "تعالي يا نيرفانا .. تعالي ..انظري الى هذا المنظر .. منظر رائع انهم يبدون كأفعى تتلوى في الرمال ".. قال ابو كفاح واشار بيده الى الطابور الفوضوي الذي تحاول ان تفرضه سرية جهنم على الناس بالقوة دون كبير نجاح.

"المنظر من تحت مختلف تماما ..انهم اناس يرزأون تحت وطأة الفقر والجوع " ..قالت نيرفانا بعطف..

فاستنشاط الزعيم غضبا وقال" : انا اعرف الجوع .. واعرف الفقر .. لم اولد وفي فمي ملعقة من ذهب ...لكن هذه مرحلة انتهت ..انا ابن اليوم فقط ..فهمت يا نيرفانا؟؟ انا اليوم فوق" ..

نيرفانا بحذر :انتبه يا زعيم ..ماطار طير وارتفع الا وكما طار وقع..

ابو كفاح :لا ..لا تخافي علي ..لن اقع ..انا اعرف نفسية الشعب جيدا واعرف كيف اسوسه حينا ..وصمت برهة ثم اضاف و"كيف ادوسه احيانا اخرى"..

نيرفانا :زعيم ..لو كنا نشتري طحينا بكميات اكبر لاستطعنا حل مشكلة طوابير الخبز و لأمكن للشعب ان

يعيش براحة اكبر..

فتجاهل ابو كفاح نيرفانا واقترب منها وقال بنزق :نيرفانا ..هذه امور عقلك الصغير لا يستطيع ان يحدها..

لم لا ترتدين شيئا خفيفا وتهيئي لي كأس الشمبانيا؟؟

تجاهلت نيرفانا طلب الزعيم وقالت :لكن لم هذه اللامبالاة يا زعيم؟؟ اليس من واجبنا ان نؤمن حياة افضل لمدينتنا؟؟

قال الزعيم بجدية مصطنعة وكأنه يلقي واحدا من خطاباته الملفقة : نحن نقوم بافضل ما في وسعنا ولكن نحن محاصرون...

نيرفانا :لكننا نستورد اسلحة يا زعيم عن طريق البحر ..افنعجز عن استيراد الطحين؟؟

ابو كفاح :في الحقيقة، نحن نستورد كميات كافية ..ولكن طمع التجار..

نيرفانا :لكن انت يا زعيم لك السلطة المطلقة ..بامكانك منعهم ومعاقبتهم..

ابو كفاح :لا يا نيرفانا ..هؤلاء خيوط العنكبوت الذين اتحكم بهم في المدينة ..لا اريد ان اخسرهم مقابل لا شيء

نيرفانا باستغراب :كيف مقابل لا شيء ..ممكن تكسب الشعب عوضا عنهم..

ابو كفاح :وما يهمني في هؤلاء النعاج؟؟ انهم يجرون رواء كل ناعق ولو ساقهم الى الذبح ..كوني واقعية يا
نيرفانا ..شعبنا فقير لا يوجد شيء يتسلى به او يمضي وقته به .. مسارحهم تحولت الى ثكنات لميليشاتنا..
ملاهيهم اصبحت مرابضا لمدافعنا ..شوارعهم اصبحت جبهات قتالنا ..دعيهم يتسلون قليلا بالبحث عن لقمة
عيشهم ..دعيهم يشعرون انهم حققوا انجازا مهما ما في حياتهم القذرة البائسة..
قال هذا ثم شار باصبعه من خلال النافذة وقال " ارأيت هذا الرجل هناك؟؟ تعالى وانظري الى تعابير وجهه..
لقد خرج من الصف حاملا ربطة الخبز منتشيا بالنصر وكأنه فتح عكا ..كيف لا وقد حصل على قوت
يومه؟؟ انا اتابعه كل يوم ..كل يوم نفس عدد ساعات الانتظار .. ونفس الابتسامة" ..
ثم ابتسم بخبث وقال " انا ادخل الابتسامة الى قلوب الناس يا نيرفانا "..ثم رمى بارغفة كيس خبز كامل الى
حوض السمك الكبير في منتصف مكتبه ..فتقاتلت عليه السمكات في منظر فريد من نوعه ..وقهقه الزعيم
بهيستيريا وقال" هيا تقاتلوا على لقمة الخبز ..تقاتلوا ..هيا .. هاهاها"..

قد تسألوني كيف سجل اسامة في مذكراته هذا الحوار السادي الذي
لم يشهده ؟؟ لا اعرف ..لربما روته له
فاطمة ..من هي فاطمة؟؟ لا تستعجلوا ..ستعرفون عما قريب..

جرذ على رقعة شطرنج

وشيئا فشيئا بدأت العلاقات تتوطد بين ابي صقر واسامة حتى
اعتبره هذا الاخير بمثابة الاب الروحي فراح
يشكو له همومه واحزانه ويستشيره في كل شاردة وواردة .ولم يكن
ابو صقر يبخل عليه بالنصيحة ابدا ولكن
مع ذلك ظل" الريس "كما يحلو لاسامة ان يسميه لغزا مستعصيا اذ
لم يكن يتحدث عن نفسه او عن مشاعره
الا لماما حتى يخيل لمن ينصت اليه انه امام رجل آلي مهمته في
الحياة تنفيذ الاوامر .لذا بدأ اسامة يفهم شيئا
فشيئا لم كلف رئيس التنظيم ابو كفاح ابا صقر بتدريبه .وكان من
اشد ما يثير استغراب اسامة حرص ابي
صقر على احترام مواعيده .. فقد كان يأتي الى نوبته يوميا على
الموعد المعين مهما كانت الاوضاع متأزمة
وكأنه موظف دولة مداوم .لذا لم يكن من الغريب ان يجد اسامة
شريكه كل يوم في نفس المكان ونفس الوقت
ونفس الوضعية ..لقد تحولت الدنيا في نظر ابي صقر الى نافذة
وبندقية وساعة ..وكل ما سوى هذه الاشياء
الثلاثة فهو اكسسوار لا قيمة فعلية له..

دخل اسامة الحجرة ليجد ابا صقر في وضعيته المعهودة فسأله :
كيف الحال يا ريس؟؟
فاجاب ابو صقر ممتعضا :ناشفة ..لم نسترزق الا بواحد منذ الصباح..
اسامة :غريب انت يا ابو صقر ..لا تقيم ادنى احترام للنفس البشرية ..حتى لو كانوا اعداءنا فلا استطيع ان اتكلم عنهم مثلك.
ابو صقر :دعك مني الآن ..تعالى اتحداك في لعبة جميلة؟؟
اسامة يضحك :لعبة ..انت تلعب؟؟
ابو صقر :الحياة كلها لعبة يا بني ..تعال الى نافذتي ..تعال وانظر..
تقدم اسامة من النافذة ونظر من خلالها فلم ير شيئا مهما ..فقال "الام انظر ..لا شيء الا العتمة والظلام"..
ابو صقر :من حين لآخر يؤنس وحدتنا جرذ يتجرأ ان يخرج من جحره ..هل تتحداني في اصطياده؟؟
ضحك اسامة وقال لم لا؟؟ لعبة مسلية ..ثم جهز بندقيته وجلس يترصد اول جرذ يمر..
مرت خمس دقائق والمكان خاو حتى مل اسامة وقال مبتسما" يبدو ان الجرذان شعرت بمؤامرتنا فهرعت الى الملجأ"..

فقال ابو صقر بصوت خافت وكأنه يخاف ان تسمعه الجرذان :
الجرذان تحتاج الى طعم ..ثم رمى بقطعة لحم
كانت قد تبقت من غداءه الى الزقاق ..وبالفعل فلم تمض خمس
دقائق الا وبدأت الجرذان تخرج من مخابئها
بحذر..
وكان اسامة اسرع من صاحبه في القنص فما ان اطل اول جرذ من
مخبأه حتى فجر دماغه برصاصة قاتلة ثم
صرخ منتشيا بالفوز" ربحتك يا ابي صقر ..سبقتك"..
لم يتحرك ابو صقر ولم يرف له جفن بل قال بهدوء" كيف تربحني
وانا لم احدد بعد شروط اللعبة؟؟ اسمع يا
اسامة ..ان انا قتلت الجرذ لحظة خروجه تنتهي اللعبة سريعا ..وفي
هذا المكان الممل لا يوجد كثيرا من
الالعاب ..اريد تشويقا ..انظر يا اسامة ..طلقتك اخافت الجرذان ..
لقد اصبحوا اكثر حذرا ..اصبح الامر اشد
صعوبة الآن واكثر اثارة" ..
صمت اسامة وجلس يراقب ابي صقر .. ومرت نصف ساعة كاملة
ويد ابي صقر لم ترتفع عن زناد" زوزو"
ومن ثم بدأت الجرذان تتخلى عن حذرها قليلا ..فخرج احدها قليلا
واطل برأسه كي يستكشف ان اصبح الجو
امانا ..وتوقع اسامة ان يعاجله ابو صقر برصاصة في رأسه الا ان
يد ابي صقر لم تهتز ..وشيئا فشيئا بدا

الجرذ يطمئن اكثر واكثر الى ان خرج كله وشمشم الارض من
حوله فلم يجد اي رائحة للخطر ..فاطمأن
اكثر وهرع الى قطعة اللحم وعض عليها ثم قفل عائدا الى مخبأه
جزلا وفرحا حتى خيل لاسامة انه يراه
مبتسما من فرط سروره بفوزه بالغنيمة ..وفي اللحظة التي هم فيها
الجرذ بالعودة الى مخبئه عاجله ابو صقر
بضربه في الصميم قطعته نصفين .. وتنهد عندها ابو صقر وقال
"المهمة انتهت "..ثم اراح بندقيته الى الحائط
قربه بعد ان ربت عليها وقال" احسنت يا زوزو .. صبرت ونلت "..
ثم نظر الى اسامة وقال" لعبتي اشد اثارة
وتحديا اليس كذلك؟؟"
فضحك اسامة وقال" انت بلا قلب يا ابا صقر ..هل هناك من لعبة
اخرى نتسلى بها؟؟
ابو صقر :تعال نلعب الشطرنج..
اسامة :انت تعرف تماما اني لا اعرف هذه اللعبة..
ابو صقر :انا اعلمك ..انظر هذا هو البيدق..
اسامة :وما دوره؟
ابو صقر :انه الجندي الذي ينفذ الاوامر ..انه ينظر الى الامام فقط
ولا يستطيع الرجوع الى الخلف..
اسامة :انه مثلنا..

ابو صقر :تماما ..لا احد يبالي به فهناك الكثر منه كما تلاحظ على هذه الرقعة..

اسامة :يعني لا امل له ان يخرج الى النور ..الى الحياة؟ هل كتب عليه ان يظل دائما بلا هوية ولا عنوان؟

ابو صقر :ان وصل الى الصف الاخير يصبح وزيرا ..ولكن فرصته واحد بالالف ..على الارجح سيسقط قبل ذلك بكثير.

اسامة :وزير، وما دور الوزير؟؟

ابو صقر :آه الوزير ..انه اقوى قطعة على هذه الرقعة .يصول ويجول اينما شاء وفي كل الاتجاهات..

اسامة وهو يتخيل نفسه قد ترقى الى وزير :ياه ..من الممتع ان يصبح المرء حرا..

ابو صقر مصححا :انه يظن انه حر..

اسامة :وما هذه القطعة الكبيرة؟؟

ابو صقر باحترام :انه الملك ..وهو اهم قطعة ..اذا سقط تنتهي اللعبة..

اسامة :آه الملك ..انه مثل الزعيم..

ابو صقر :تماما...

اسامة :انه يتحكم بالكل..

ابو صقر مصححا :انه يظن انه يتحكم بالكل..

اسامة :ما قصة هذه ال"يظن"؟

ابو صقر :بني، قد يبدولك الوزير او الملك اهم من البيدق ولكن..
اسامة وقد بدأ يفهم :ولكنها كلها احجار في النهاية..
ابو صقر :نعم يا بني، احجار تحركها اياد خفية .هناك شبكة واحدة تحركنا، تلهو بنا، تحتفظ بنا وتحمينا
طالما كان في هذا نفع لها وتضحي بنا ما ان يتطلب الامر ذلك..
ابو صقر :حتى الملك؟؟ لكنك قلت لي ان سقط الملك تنتهي اللعبة..
ابو صقر :انت قلتها ..تنتهي اللعبة ..انها مجرد لعبة ..سيعود اللاعبون الى لعبة غيرها في ميدان آخر..
اسامة :من هم يا ابو صقر؟؟ من هذه الايدي المجرمة التي تلعب بالاوطان وتمزقها؟؟
لا احد يعرفهم يا بني على وجه التحقيق .ولا احد يجرؤ على ان يلفظ اسمهم .. انهم مملكة الشيطان ..ارباب
القوة والنفوذ والمال والسلطة ..يتحكمون بالعالم كله من وراء الكواليس..
الشيطان؟؟ انه لقوي حقا ..قال اسامة..
بل نحن مغفلون يا اسامة ..قوته من غفلتنا ..نحن كالغنم نلحق كل ناعق ولو كان يسوقنا الى الذبح..

مبادىء قناص

وتمر الايام ويغرق الريس و تلميذه النجيب في الروتين ..تصبح الايام مثل بعضها البعض ...القتلى

يتساقطون من الجهتين ..تغيب اسماء الضحايا في المقابر
الجماعية التي يدفنون فيها ويتحولون الى مجرد
ارقام تلوكها آلة حرب تأكل الاخضر واليابس ولا تفتأ تسأل" هل من
مزيد؟؟ "ومع ذلك يبقى الامل مشرقا في
نفس اسامة وتلوح له في الافق احلام وردية تنتهي فيها الحرب
ليتزوج ممن ملكت قلبه و ينشىء معها اسرة
صالحة تعيش في سلام وامان بعيدا عن الحرب والدماء و دوي
القذائف .رغم كل شيء ظلت روح اسامة
مفعمة بالامل وظل يغتسل بدفء الشمس واشعتها الذهبية من
خلال نافذته..
نظر اسامة الى الشمس متأملا ثم التفت الى ابي صقر وقال :
"اتعرف ان بلادنا جميلة جدا ..لولا الحرب"..
ارتسمت على شفتي ابي صقر ابتسامة ساخرة وصحح كلام اسامة
قائلا :بلادنا جميلة لولا شعبها ..ثم اقترب
من اسامة لينظر من خلال نافذته فبهت بالمنظر الجميل الذي يطل
عليه :" اتعرف ان زاويتك اجمل من
زاويتي؟؟ انت ترى الشمس ..اما نافذتي فلا تطل الا على الازقة
والجرذان"..
"انت اخترتها لي " ..قال اسامة مستغربا
هز ابو صقر برأسه وقال" نعم هذا افضل لي ولك ..الشمس
تذكرني بالامل وانا لا احب " ..ثم توقف و قال

"الن تصلي؟؟ الشمس تشارف على الغروب"..

"بلى "قال اسامة وقام ليتوضأ..ثم قال" الن تشاركني يوما في صلاتي؟؟ الا تؤمن بالله؟"

"بلى بالطبع، لكن لي فلسفتي الخاصة في هذه الامور ..ان عبادتي تكون بهذه "واشار الى بندقيته..

"ماذا تقصد؟؟"

"لكل منا مهمة على هذه الارض ..فاذا اداها باتقان وانضباط بكون مؤديا لعبادته على اكمل وجه"..

"انت غريب حقا في تفسيرك للامور" ...

"لنقل اني لست رجلا تقليديا" ..

"وما مفهومك للاتقان يا ترى؟""

"تصفي الضحية بدون ان تتعذب ..طلقة في الرأس ..شفرة حادة في حالة السلاح الابيض ..ومن المفضل الا تقتل الضحية امام اقاربها"..

"انت صاحب قلب رقيق حقا "..قال اسامة ساخرا والماء ينقط من وجهه من اثر الوضوء

"لنقل اني صاحب مبدأ"

"هذا عن الاتقان وماذا عن الانضباط؟"

"الانضباط هو تنفيذ الاوامر بحرفيتها وبصرامة شديدة".

"حتى لو طلبوا منك ان تضحي بحياتك"..

بسخرية بل لو طلبوا مني ان اقتل والدي"...

"الهذا الحد تؤمن بالتنظيم؟؟"

"لا يا بني هذا ليس له علاقة بالتنظيم ..انا تدرجت في احزاب
عديدة قبل وصولي هنا ..انا اتكلم عن شرف
المهنة ... المهنة التي لا شرف لها ..كي اكون متفوقا في مهنتي
علي ان اكون هكذا ..وانا اعشق الاتقان
والانضباط كعشقي لزوزو "ثم صمت هنيهة وتابع :زوجتي ممكن
تخونني ..اما زوزو فلا "..ونظر الى
بندقيته بحنان غريب.

"ان الحرب لعبثية حقا "..قال اسامة وانصرف الى صلاته.

البودي غارد الجديد

وبعد ان تعلم اسامة الانضباط والمهنية الرفيعة من الريس ابي
صقر اختار ابو كفاح ان يصطفيه لنفسه
خاصة انه لم يعين لنفسه مرافقا منذ اغتيال مرافقه السابق" زكور "
على يد قناصة العدو .وبدأ اسامة يكتشف
اشياء جديدة عن القائد ..كان ابو كفاح ادهى قادة الميليشات في
وطننا على الاطلاق فقد امسك بزمام حزبه
بقبضة من حديد بحيث يستحيل ان يخرج رجل من حزبه عن
طوعه ..كما انه عرف بالدهاء والقدرة على
التخفي والتستر حتى اطلق عليه اعداءه لقب" النمس ."كان لابي
كفاح العديد من الاعداء في الداخل والخارج،

لذا كانت حركاته تحاط بالسرية المطلقة، ولم يكن يطلع احدا على
اسرار تنقلاته الا سائقه" تيسير "ومرافقه
الجديد المؤتمن اسامة .وشيئا فشيئا اصبح اسامة اليد اليمنى لابي
كفاح واصبح خبيرا في تنقلاته وسكناته
والطرق الخفية والمختصرة التي يسلكها.
تسنى لاسامة مرافقة الزعيم لفترة طويلة لمس فيها مدى تأثيره على
الناس والهيبة التي يفرضها عليهم ..كان
يتعامل مع الجماهير بصورة رائعة ويستطيع ان يضحكها في لحظة
ويبكيها في اخرى ..كان الزعيم يحرص
كذلك على مواساة الناس والاحتكاك بهم والتواصل معهم .وكثيرا ما
كان سكان الاحياء الشعبية يفاجئون
بزيارة سيارة مرسيدس سوداء ينزل منها شخص مهيب يرتدي
نظارات سوداء فيأمر الشاحنة التي تسير في
موكبه ان توزع الحصص الغذائية على الناس الفقراء والالعاب على
اولادهم..
في ذلك اليوم بدا كل شيء اعتياديا ولم يشعر اسامة بأي احساس
بالخوف او الاستهداف ..اراد الزعيم ان
يعزي بشهيد من الحزب سقط على ارض القتال فطلب من موكبه
ان يتهيأ واستقل سيارته المرسيدس
المصفحة السوداء برفقة اسامة .وانطلق الموكب بسرعة يشق
الاحياء وزواريب المدينة الضيقة.

تثاءب ابو كفاح في الطريق من الملل وتلفت حوله فلم يجد من
يكلمه الا اسامة فقال له مداعبا :اليس هناك
من امرأة تؤنس حياتك يا اسامة؟
اسامة :لا يا سيدي لم اتزوج بعد..
ابو كفاح :ومن يتكلم عن الزواج ..الا تلهو كما يلهو الشباب؟
اسامة :لا يا سيدي انا رجل متدين..
ابو كفاح مبتسما بسخرية :وانا متدين كذلك .. اتوقف عن هذه
الامور في رمضان
اسامة بادب شديد :الاخلاق الحميدة تطبق على مدار السنة سيدي
فغضب ابو كفاح وقال :ماذا تقصد ؟؟ انا بلا اخلاق؟؟
اسامة بادب شدبد :يعلم الله كم احترمك يا سيدي لافضالك على
مدينتنا، ولكن انت عودتنا على الدمقراطية
وابداء الرأي الحر .انا اعبر عن رأيي الخاص فحسب.
ابو كفاح :انت متشدد يا اسامة ..لعلك تقول هذا الكلام لأنك لم
تجد بعد الفتاة التي تعجبك..
فطاطىء اسامة رأسه وهم ان يجيب ولكنه آثر الصمت ..فعبير
اثمن عنده من ان يتكلم بشأنها مع ابو كفاح
الذي لا يميز بين المراة و السلعة.
ابو كفاح :عندنا في التنظيم الكثير من الحسناوات .ان شئت انا
اختار لك واحدة منهن قال ابو كفاح بنزق
وكأنه يستلذ في اغاظة اسامة.

فحاول اسامة ان يكظم غيظه وقال :سيدي، كنت اظن اننا نقبل
الفتيات في التنظيم لأن المدينة بحاجة الى جهد
كل ذكر وانثى لحمايتها.
ابو كفاح بسخرية : صحيح والله .نحن بحاجة لجهودهن لرفع
معنويات الشباب .بعضهن يعمل دواما اضافيا..
فعدد الشباب يفوق عدد الاناث بكثير ..ثم سرح في البعيد وتذكر
واحدة منهن :نيرفانا هذه مميزة يجب ان
اعطيها وسام البطولة من رتبة فارس نظرا لخدماتها الجليلة للحزب
ثم قهقه وقال" او لعله من الافضل ان
اعطيها وسام البطولة من رتبة الفرس"
وهيجت هذه الجملة الوقحة اسامة فقد كان يشعر ان أي فتاة في
العالم هي اخته ولا يحب ان يسمع اهانة بحقها
فقال بحدة" لا يا سيدي ..ليست كل النساء هكذا ..اعرف واحدة
محجبة .. وجهها كالقمر ليلة البدر ..صوتها
موسيقى فيثارة سماوية ..اخلاقها عطرة كالمسك ..خارقة الذكاء
ومتواضعة ..طاهرة وبريئة ....متفانية في
خدمة اهلها و مساعدة الآخرين ..باختصار هي ملاك يمشي على
الارض وهي عندي بمئة رجل"
فاستسخف ابو كفاح هذا القول وقال" ها ..هذا هو العاشق الولهان
يكشف ستره ..تعلم مني يا بني .كل واحدة

ولها ثمن ..وما هذا التمنع الا وسيلة لرفع السعر فحسب "ثم اشار ابو كفاح الى السائق" تيسير "ان يتمهل قليلاكي يحيي الجماهير التي اصطفت لاستقباله على جانبي الطريق .. ولم تمض ثوان على توقف السائق حتى دوى انفجار ضخم اقتلع ثلاث سيارات من سيارات الموكب بمن فيها واتى على قسم كبير من الناس المصطفين على الطريق .وشاء القدر ان ينجو ابو كفاح ومن في سيارته من الانفجار حيث خرج بجراح طفيفة ..وكان بديهيا عقب هذا الانفجار ان تتحول اصابع الاتهام نحو الجبهة الوطنية المناوئة فاحتدمت المعارك من جديد وكسب التنظيم المسلح باسلحته الجديدة المستقدمة من دول المنظومة الشرقية مساحات جديدة طهرها تطهيرا طائفيا من سكانها .. وطبعا ردت الجيهة بدورها بحملات تهجير واسعة مماثلة .وبدأت فصول اكبر مأساة في تاريخ الحرب الاهلية ..المأساة التي لم تندمل جراحها حتى الآن :التهجير..

حينما يتلوث اسم الحب

وشيئا فشيئا بدأ اسامة يتعرف على الاماكن التي يرتاد اليها زعيمه وقد تنوعت من جبهات القتال الى البارات والاندية الليلية الى المساجد وكان ابو كفاح داهية في كلامه وتصرفاته اتقن قاعدة" لكل مقام مقال"

اتقانا مرعبا، فاذا جلس مع الشيخ او القسيس تكلم معهم في الدين وكأنه خريج الازهر او كلية اللاهوت واذا
انفض الى المرابع الليلية تصرف مع غانياته تصرف الدون الجوان اللعوب ..الا ان نساء البارات كن مجرد
متعة وتسلية بالنسبة له اما المرأة التي ملكت فؤاده فقد كانت سكرتيرته نيرفانا زميلته في الحزب وعشيقته
التي لا يتخلى عنها ...وفي عدة مرات كانا يتواعدان على اللقاء في اماكن غريبة بعيدا عن الاضواء..
واحيانا كثيرة كان ينفرد معها في سيارته المصفحة بعد ان يطلب من اسامة ان ينتظرهما خارجا ..كانت
علاقة ابي كفاح بنيرفانا شائنة جدا بنظر اسامة وكان يستغرب مدى جرأتهما في هذه الامور حتى امامه ولكنه
تغاضى عن هذا كله لمواقف ابي كفاح السياسية الجريئة و جهوده الحثيثة لحماية المدينة ..فكان يبرر في نفسه
سكوته عن هذا المنكر بقوله" الله يهديه ..هذه امور شخصية في النهاية تخصه هو ..وانا لا يحق لي ان اتدخل
فيها ..خاصة اني اعلم انه لن يستجيب لي "..الا ان ما يقلقه حقا كان هذه النظرات الغريبة التي كانت تنظر
بها نيرفانا اليه والى عضلاته المفتولة وكأنها تجرده من ثيابه بعينيها..

مع ذلك فقد كانت هذه العلاقات الفاضحة التي يقوم بها ابو كفاح
والامكنة المشبوهة التي يزورها مصدر
اغراء لاسامة ..فهو كان شابا في النهاية و دماء الشباب تجري في
عروقه ..ولاول مرة تقع عينيه على
منظر الاجساد العارية البضة والتضاريس الانثوية ويقع سمعه على
الآهات والضحكات الماجنة ..فلم يكن
امامه للصمود الا ان يطور اسلوبا خاصا به ..اسلوبا كان يعتمده
في فترة مراهقته :المراة الشيطان ..عاد
ليكره المراة و كل ما تمثله له وبدل ان ينظر الى منظر الاجساد
العارية نظرات الشهوة و اللذة اصبح ينظر
اليها نظرة الازدراء والاحتقار .. وبدأ يطور في خياله هذه الفكرة
حتى اصبح منظر الجسد العاري والعبارات
الفاضحة يدفعه للغثيان وربما القيء بدل ان يثير فيه لواعج
الشهوة ..طبعا كان يعرف في نفسه ان الوضع
مختلف هذه المرة عن ايام المراهقة فهو لم يكن مقتنعا بهذا كله بل
كان يكذب على نفسه ويجاهد ويكافح كي
لا ينحرف ويسقط في الهاوية..
لكن الصمود امام الاغراء شيء والصمود امام الاغواء شيء آخر ..
كان اسامة مجهزا بجهاز لاسلكي يؤمن
له الاتصال الفوري بالقيادة والزعيم ، وفي ذلك اليوم تلقى اسامة
اتصالا عليه من جهاز الزعيم فاجاب على

الفور :زعيم انا في اتم الجهوزية اين تريدني ان اكون؟؟
ولكنه تفاجىء بان يسمع ضحكة رقيقة ناعمة على الطرف الآخر
من الخط وصوتا انثويا يقول :اسمع اسامة
انا نيرفانا واريدك في منزلي حالا لو سمحت..
خيرا ..ماذا هنالك ..الزعيم في خطر؟؟ اجاب اسامة بقلق
لا اطمئن هو بخير ..تعال وانت تعرف..
وضع اسامة خوذته الواقية وركب دراجته النارية مسرعا الى منزل
نيرفانا ..وفتحت له هذه الاخيرة الباب
فاندفع مسرعا الى الداخل بحثا عن الزعيم لاستشعاره انه في
خطر ..دون ان ينتبه الى ان نيرفانا لم تكن
تلبس لباسا لائقا لاستقبال رجل غريب .لم يجد اسامة الزعيم في
زاوية نظره فاعاد النظر الى نيرفانا لينتبه
الى انها تلبس ثياب نوم مثيرة تظهر مفاتنها فاستعاذ بالله وغض
بصره ..لكن هذه الاخيرة لم تتركه في حاله
فغلقت الابواب واقتربت منه بدلال وغنج وتلمست عضلاته المفتولة
بيديها الناعمتين وقالت:
"انت بطل يا اسامة ..حقا انت بطل"..
لكنه ابتعد عنها وقال" البطولة ليست هنا يا نيرفانا ..البطولة تكون
في مقاومة الاغراءات والصبر على
الشهوات"..

فضحكت نيرفانا ضحكة خليعة وقالت" لكن انت لن تتركني لهذا الكهل المخبول ..اليس كذلك؟؟ انت تريدني لك؟؟ اشعر بنظراتك تلتهمني وتخترق جسدي"..

اجاب اسامة بصوت متهدج والدم يغلي في عروقه من الاثارة" معاذ الله انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون"..

فبدأت نيرفانا بالغضب وصرخت في وجهه" ماذا تظن نفسك حتى تكلمني هكذا؟؟ هل تظن نفسك نبيا؟؟ اسمع يا اسامة ..سيدك هذا ليس زوجي حتى تحترمه هكذا ..لو قلت لك عن حقيقته لرذلته تماما واحتقرته كما احتقره انا ..وانا لست امراة العزيز التي تبحث عن اللذة ..انا امرأة عادية بحاجة للحنان وسيدك هو الذي رماني في هذه الوحول القذرة واجبرني ان اكون عشيقته بابتزازه الدائم لي"..

فاجاب اسامة بلا مبالاة" ضحكاتك وغنجك الدائم معه لا يوحي لي ابدا انك مجبرة .نيرفانا ..انا اعرف اني لست نبيا ..واعرف ان سيدي ليس ملاكا ..انا لم اكن اتحدث عنه في الاصل ..بل كنت اتحدث عن الرب الحقيقي ..الرب الذي يراني اينما كنت ..عن آلهي الذي خلقني واحسن مثواي"..

فاستدركت نيرفانا وقالت" لكن الله غفور رحيم ..وانت شغفتني حبا ..
"
فنظر اليها اسامة بسخرية وقال" انت تدنسين الحب بوصفك لشعورك نحوي بالحب ..لو كان حبا حقا لما عرضت علي نفسك من اول لقاء"..
فانهمرت العبرات من عيون نيرفانا وقالت" لا تظلمني ارجوك ..انا لم اقصد هذا ..ولكني ظننت ان هذا ما يجذب الرجال الى النساء فكنت مستعدة ان اقدم لك كل ما تطلبه مني"..
"عذرا فانا لا احب ان آكل في صحن غمس فيه احد قبلي اصابعه "..قال اسامة بقسوة
فتمسكت نيرفانا بيديه وقالت" لكن انا مستعدة ان اترك كل الرجال الذين اعرفهم واكون لك وحدك فقط ..لماذا لا نتزوج على سنة الله ورسوله ونهرب خارج هذه البلاد ..ونفر من الزعيم و من هذا البلد البائس كله"..
فنظر اسامة الى البعيد وقال" لا اعرف مدى صدقك يا نيرفانا ولكن انا لن استطيع ان احب في حياتي الا امراة واحدة ..امرأة طاهرة الذيل لم تدنس نفسها في اوحال الخطيئة ..آسف لا استطيع ان اقبل عرضك"..
ثم افلت قميصه من بين ايديها وركل الباب برجله القوية فخلعه وخرج من البيت لا يلوي على شيء تاركا

بقايا قميصه الممزق في يديها .. فامسكت بحنق باقرب اناء زهور اليها ورمته على الباب المخلوع وهي
تصرخ قائلة" ماذا يفترض بي ان افعل الآن كي تكتمل قصتك ايها النبي؟؟ ان ارميك في السجن؟؟ "ثم انهارت
بالبكاء..

عشاء على انقاض وطن

لم اعرف على وجه التأكيد ماذا دار بين نيرفانا وابي كفاح بخصوص اسامة لكني اعرف يقينا انه لم يرمه في
السجن كما كانت تتمنى فلم يكن ابو كفاح بالشخص السهل الانقياد كعزيز مصر ..انا متأكدة تماما انها
حاولت ان توغر صدره ضده ولكنه كان يثق به ثقة عمياء او لنقل انه لم يكن يصدق البتة ان هذا الرجل
المفتول العضلات يمكن ان يكون خبيثا او مراوغا ..لذا فقد كان يضحك منها في كل مرة تقول له ان يحترس
منه الى ان طفح الكيل منها في احد المرات واجابها بقسوة حسم فيها الموضوع قائلا" : اسامة هذا غبي ..انه
يتبعني كظلي ويفديني بدمه، انا لا افهم لم تخافين منه؟؟ انه مجرد عضلات مفتولة .. اما هنا " ..واشار ابو
كفاح الى رأسه" فلا يوجد شيء ..ارجوك لا تكلميني عنه بعد الآن ."وغني عن الذكر ان هذا الاستخفاف
باسامة سيكلف ابي كفاح كثيرا فيما بعد ..بل كثيرا جدا..

وظلت الحرب سجالا بين الفريقين الى ان مل الناس من أي امل
بنهايتها وانطفأ بصيص النور في نهاية هذا
النفق المظلم .لكن بداية فتور الحرب الباردة بين القطبين ادت الى
تغيرات اقليمية دراماتيكية فرضت على
الافرقاء ان يخففوا قليلا من حربهم الشعواء خشية ان تمتد نيرانها
الى المحيط الاقليمي كله .فأجبر التنظيم
القومي على اللقاء مع خصمه اللدود زعيم الجبهة الوطينة في خيمة
اقيمت على عجل عند خط التماس برعاية
دولية .وكان اسامة في عداد الوفد المرافق للتنظيم كونه الحارس
الشخصي لزعيمه ابو كفاح بالاضافة الى
سكرتيرة الحزب نيرفانا التي جاءت الى الاجتماع ببزة عسكرية انيقة.
وبعد خمس دقائق من حضور ابو كفاح ووفده حضر قائد الميليشيا
الوطنية" شربل "الملقب بالقديس .وشعر
اسامة لدى رؤيته بالغثيان اذ لم يكن يتصور ان يرى نفسه امام
زعيم قتلة ابناء مدينته وزعيم قاتلي امه دون
اية ردة فعل ..في مرات عديدة من اللقاء كان اسامة يضع يده على
خصره متحسسا مسدسه ومتمنيا لو يستله
من غمده ويقضي على رأس الافعى ولكنه كان منطقيا رغم ثورته
فهو يعرف ان البديل جاهز للوراثة وان
اغتيال الزعماء لن يجر على البلد الا حمامات دماء اخرى هو
بغنى عنها .لقد كان السلام ثمنا مقبولا يستطيع

ان ينسى فيه اسامة امر الانتقام من القتلة .ولكن ما ادمى فؤاده فعلا فهو رؤيته لابي كفاح يحضن رئيس الجبهة الوطنية المناهضة ويعامله كأنه صديق حميم ويقول" :والله زمان يا شربل .. متى كانت آخر مرة اجتمعنا فيها؟؟؟"

شربل" :اذكر ان هذا كان عقب مجزرة قمنا بها ضد المخيمات .. لكن بصراحة لا اذكر اي واحدة منها بالضبط"..

"ولم تذكر؟؟ العالم كله لا يذكر ..التاريخ لن يذكر ..لقد توقف التاريخ عند الهولوكست "قال ابو كفاح مبتسما.

اجال القديس نظره في الوفد المفاوض وتوقف عند نيرفانا فنظر اليها بشهوة وقال" لو كنت اعرف انك ستصطحب زوجتك معك لكنت جئت بزوجتي وقضينا سهرة عائلية ممتعة"

فضحك ابو كفاح وصحح وسط دهشة نيرفانا :لا يا عزيزي هذه عشيقتي وليست زوجتي .. فانا تزوجت القضية فقط وهي لا ترضى ان يكون لها ضرة.

فقهقه القديس من الضحك وقال" لا تغضب يا رفيق .لكنت اصطحبت معي احدى عشيقاتي اذن كي لا تظن انك وحدك زير النساء هنا"..

فابتسم ابو كفاح وقال " لا احد يشكك في امكانياتك ..لكن نيرفانا
هنا بصفتها سكرتيرة الحزب لا بصفتها
الشخصية"..
"سكرتيرة الحزب؟؟ هذه حظوة لا تنالها اي محظية ..انت محظوظة
يا نيرفانا "قال شربل دون ان يرفع نظره
عن الفتاة" .ان استقلت من هذا المنصب فانا مستعد لاستقبالك
عندنا"
"كفاك وقاحة وسماجة "قال ابو كفاح ..دعنا نبدأ الجلسة المغلقة
وننتهي من هذه المهمة القذرة .ثم ا شار بيده
الى المصورين الصحفيين لينسحبوا الا ان احد الصحفيين
المشهورين اقترب منهما وطلب الاذن بتصويرهما
فاذنا له وقال القديس" الخلاف بيني وبين ابو كفاح لم يكن شخصيا
ابدا ..انه خلاف سياسي بامتياز "واردف
ابو كفاح مخاطبا الصحفي" اكتب تحت هذه الصورة هذا العنوان :
لقاء الصليب والهلال، فأنا احب هذه
العناوين البراقة".
وبعد انصراف الصحفيين ابتسم شربل لنظيره وقال غامزا من قناته
"اما زلت تؤمن بالهلال يا ابو كفاح؟؟"
"بقدر ما تؤمن ببركات القديس شربل "..اجاب ابو كفاح بسرعة.
"سريع البديهة دائما كما عهدتك ..لا عجب ان يقتنع الحمر بك
دونا عن سائر القادة القوميين"..

"شكرا يا شربل ..لكن دعنا من المجاملات الآن .. اريد ان ننهي هذه المهمة القذرة بسرعة ..ماذا تريدون؟؟"

شربل" :نريد ان يعود الوضع كما كان عليه قبل ان يدعمكم الحمر انتم والفدائيين"..

ابو كفاح :استيقظوا من احلامكم ..لقد تغيرت الظروف انتم الاقلية الآن ..لقد تغيرت الديموغرافيا.

شربل :ربما انتم الاكثرية ولكن نحن النوعية

ابو كفاح :الى متى ستظلون فاشيين هكذا؟؟

شربل :حتى تتخلوا عن رجعيتكم وجهلككم وغبائكم..

ابو كفاح :انتم خونة بالفعل ..تتعاملون مع عدو الامة العربية ومع سرطان الشرق الاوسط.

شربل :عندما يكون وجود الاقلية مهددا فهي تتعامل مع الشيطان ان اقتضى الامر.

ابو كفاح :انا لا افهم لم تعيشون في عقدة الخوف والاضطهاد؟؟
نحن لا نريد ان نقضي عليكم .نريدكم فقط ان
تعترفوا بعروبة هذا البلد..

شربل :الفناء اهون علينا، نحن لم ولن نعتبر انفسنا جزءا من هذه المنطقة المتخلفة ابدا ..نحن قطعة من
الغرب لا بل قطعة من الجنة ..انظر كيف يعاملكم الاشقاء ..
كالعبيد .على الاقل نحن نتعامل مع العدو من
منطلق الند للند.

ابو كفاح :ومتى كانت تهمك الكرامة يا نيافة القديس؟؟ صحيح ان
الاشقاء يعاملونا بدونية مطلقة ولكن هم
مستعدن ان يخسروا عشرة الاف جندي لحمايتنا وحماية مصالحهم ..
اما حلفكم مع العدو الذي تتعاملون معه
فلا تتأملوا منه خيرا، سيلفظكم صدقني ..انه ليس مستعدا ان يدفع
جنديا واحدا من اجلكم ..انتم تحلمون...
تسيرون عكس مجرى التاريخ ..استيقظوا
شربل :استيقظوا انتم، نحن نريد ان ننهض بكم ..لولانا لكانت البلد
متخلفة كسائر البلاد المجاورة ثم اردف
مستهزئا" الشقيقة بعرفكم"...
ابو كفاح :متخلفة___________ ربما لكن على الاقل مستقرة ..
انظر اين قادتنا حروبكم؟؟ دمرتم البلد فوق رؤوسنا
ورؤوسكم..
شربل" :حروبنا "؟؟ عذرا صحيح اني قديس لكن لم اكن لأتصور ان
تتكرم الملائكة وتجلس معي على نفس
الطاولة ..على كل حال هل انت متضايق من" حروبنا"؟؟
قهقه ابو كفاح حتى بدت نواجذه" اتمزح؟؟ ..بغيرها كيف كان
لشخص فاشل مثلي ان يصبح قائدا؟؟"
فابتسم شربل وقال :لطالما اعجبتني صراحتك ..ثم تناول قطعة
قريدس من الصحن الموجود امامه وقال ذق
هذه القطعة من هذه القريدس فهي لذيذة حقا..

تردد ابو كفاح قليلا فتابع شربل" ماذا؟؟؟ اتخاف ان اسممك؟؟"
فقال ابو كفاح ضاحكا" :السم لا بقتل الافاعي يا قديس ..لكن كنت
اقول في نفسي من يصدق اننا نأكل هذه
المأكولات الفاخرة في حين يتضور شعبنا من الجوع ..الناس تتقاتل
على رغيف الخبز.
فقال شربل وهو يكبت ضحكة مكتومة" فليأكلوا بسكويت"..
وفي هذه اللحظة تسلم اسامة برقية مستعجلة فمررها الى الزعيم
الذي عقد حاجبيه ما ان قرأ السطور الاولى
منها ثم حدج شربل وقال " هذه خيانة ..نحن نتفاوض هنا وانت
تأمر رجالك بالهجوم؟؟"
شربل متصنعا البراءة" لا احد يستطيع ان يسيطر على قواته سيطرة
كاملة"..
"مر قواتك ان ينهوا الهجوم على الفور "قال ابو كفاح بغضب شديد.
"لا تقلق ساعالج الوضع ما ان ننتهي من الاجتماع " قال القديس
بمراوغة.
فثار غضب ابو كفاح وضرب الطاولة بقبضة يده قائلا" اوقفهم
الآن ..والا حولت مناطقكم الى جحيم احمر"
شربل بهدوء ولكن بتهديد" انت تعرف انك لا تستطيع ذلك ..القوى
العظمى لن تسمح لك ..انها تريد وقفا
فوريا لاطلاق لنار"..

ابو كفاح بغضب" انت تستغل فترة المفاوضات لتحسين مواقعكم فيها ..هذه رذالة ..انت تتجاوز الخطوط الحمراء"

حمراء؟؟ متى كان هناك خطوط حمرا ء عندنا يا ابو كفاح؟؟ على الاقل انا اخون عدوي وليس مرافقي؟؟ ثم

نظر الى اسامة بسخرية وقال" هل سيكون مصيره مثلهم؟؟"

لقد كانت اغرب مفاوضات شهدها اسامة ..صحيح انه لم يفهم كثيرا منها ولكنه لم يشعر ولا للحظة انه امام طرفين متقاتلين ..فعلى رغم التنافر الحاد بينهما شكلا بدوا له كتروس ساعة تتطاحن فيما بينها لكنها تسير في نفس الاتجاه في النهاية وتحقق نفس المآرب ..بعد هذه الجلسة ايقن اسامة ان انتمائه للتظيم كان خطأ بل خطيئة لا تغتفر ..وادرك اخيرا ما سبق وقاله له ابو صقر .. كلنا بيادق على هذه الرقعة..

حاميها حراميها

وشيئا فشيئا بدت الغشاوة تنقشع عن عيني اسامة وتبين له ان الصورة التي رسمها في خياله عن ابي كفاح مختلفة تماما عن الصورة التي يراها عن قرب .ومع ذلك كله فقد ظل اسامة ابن التنظيم البار يطيع زعيمه طاعة عمياء متجاوزا عن سيئاته ومركزا على محاسنه التي بدأت تتضاءل شيئا فشيئا حتى وصل الى اللحظة

التي لم يستطع ان يكذب فيها على نفسه اكثر من هذا ...وفي وسط هذه المحنة والضياع لم يجد اسامة احدا

يشكو له همه الا" الريس "ابو صقر فزاره فجأة في موقعه الذي لايفارقه..

استقبله ابو صقر بالترحاب وقد بدت على عينيه علامات الدهشة وقال له" اهلا وسهلا بالابن الحبيب..

طولت الغيبة"..

فاجابه اسامة بحنين" اشتقت لك يا ريس ..آه لو تعلم كم احن الى الايام المملة التي قضيناها سويا"

فقهقه ابو صقر ضاحكا وقال" هذه اول مرة ارى فيها انسانا يستمتع بالملل"..

فاجابه اسامة" نعم يا ريس ..فترات الملل تمر ببطء بحيث يشعر الانسان فيها بكل ثانية وكل دقيقة وتنطبع في

ذاكرته كل التفاصيل"..

فهز الريس راسه وقال" آه انا افهم عليك الآن ..انها النوستالجيا .. الحنين الى البؤس"..

ثم انتبه اسامة الى ان الريس قد غير موقعه واستلم نافذة جديدة فقال :اراك قد غيرت نافذتك اليوم..

فاجاب ابو صقر بابتسامة بلا لون :تغيرت الاوامر..

تقدم اسامة ونظر من خلال النافذة فرأى قتيلا من مدينتنا مرميا على الارض فاهتاج وصرخ" ابناء السفلة لقد

اغتالوا مواطنا بريئا ..كنت اعلم ان لا امان لهم ..لقد خرقوا وقف اطلاق النار"..

لم يتزحزح ابو صقر من مكانه وقال بلا مبالاة :نعم لقد خرق وقف اطلاق النار على ما يبدو..

اسامة مهتاجا :سأنال منهم هؤلاء السفلة ..وجهز بندقيته ليصيب اي هدف متحرك .الا انه عاد وتذكر امرا

فقال :لكن يا ابو صقر ..مستحيل تقنيا ان يصيبوا القتيل في هذه الزاوية فهي مغلقة تماما عن مرمى بنادقهم.

اجاب ابو صقر ببرودة :اصبت ..مستحيل.

اسامة :لقد اخترقونا اذن؟؟ ربما اقتحموا احد مراكزنا..

ابو صقر :لا لن يفلحوا في هذا وانا حي ..ثم ربت على بندقيته وقال لها" اليس كذلك يا زوزو؟"

اسامة :ابو صقر، مالك تتكلم بالالغاز؟؟ قل لي ماذا يجري..

ابو صقر متأففا :تلقينا الاوامر ان نستأنف القتال..

اسامة مدهوشا والدم يكاد يتجمد في عروقه :تقصد انك انت من...

رفع ابو صقر يديه وكأنه يتبرأ من المسؤولية :لا بد لنا من ذريعة..

نظر اسامة الى الريس نظرة فيها مزيج من الدهشة وعدم التصديق والالم وقال :ذريعة؟؟؟ انا لا اصدق ما تقول..

ابو صقر مقاطعا :لا تقلق، اصبته بحرفنة ..لم يتعذب ..في منتصف الجبهة ..ثم ربت على بندقيته وقال" سقط

بنيران صديقة، اليس كذلك يا زوزو؟؟"
فهجم اسامة على ابو صقر وامسكه من ثيابه قائلا" مجرم ..قاتل ..
"
لم يدافع ابو صقر عن نفسه بل ابتسم وخلص ثيابه من ايدي اسامة
بهدوء قائلا" انتبه ..لقد كويتها اليوم ..وانا
لا افعل ذلك الا مرة في السنة "..ترك اسامة ثياب ابو صقر وانهار
على الارض متكوما على نفسه وبدأ ينشج
بالبكاء كالطفل الصغير فهزه ابو صقر بعنف وقال "اسامة يا ولدي،
انها حرب ..اتعرف ما معنى الحرب؟؟
لا محرمات في الحرب ..تذكر يا اسامة نحن بيادق شطرنج يا
اسامة ..مجرد بيادق"..
لم يستمع اسامة لكلام ابو صقر فقد سرح في عالم آخر وبدأت
الامور فجاة تتضح له وبدأ مسلسل الاحداث
يبدو منطقيا اكثر ..لقد تبين ان حماة المدينة هم اول من يستبيح
ارواح سكانها واموالهم ان استدعت مصلحتهم
ذلك ..وتذكر اسامة والدته التي اقسم على الانتقام لها وردد في
عقله جملة الريس الشهيرة" سانفذ الاوامر حتى
لو طلب مني ان اقتل والدي "....واطرق هنيهة ثم اضاف "
الروحي".
وفي اليوم التالي تبلغ اعضاء التنظيم نبأ مقتل ابو صقر ..وتمهل
الاصدقاء في ابلاغ ابنه الروحي اسامة.

فجاء المسوؤل المباشر عنه" ابو العلاء "الى اسامة بخطى وئيدة
وقال منكسا رأسه :ارجو ان تحافظ على
رباطة جأشك يا اسامة فالخبر الذي ساقوله لك لن يكون سهلا
عليك..
اسامة متظاهرا بالجزع :خير ..ماذا حصل؟؟
ابو العلاء وقد احنى رأسه :الريس ..ابو صقر..
اسامة متظاهرا بالجزع :ما به ابو صقر؟؟ لقد كنت مرابطا معه منذ
ايام؟؟
ابو العلاء :احتسبه عند الله..
اسامة بانفعال شديد :قتله الجبناء الخونة؟؟
ابو العلاء :في الحقيقة لقد اصيب بطلقة من بندقيته..
اسامة :انتحر؟؟
ابو العلاء :اعتقد انك اخبر الناس به انه ليس من النوع الذي
ينتحر ..يبدو انه كان ينظف بندقيته فانطلق منها
عيار ناري بالخطا.
فذرف اسامة دمعة مصطنعة وقال :خانته زوزو..
وفي الايام التالية اختفى اسامة من الساحة وتزامن هذا الاختفاء مع
سقوط كيير عدد كبير من قناصة التنظيم
صرعى برصاص قناص مجهول ..ولم يكن عسيرا على التنظيم
معرفة هوية القاتل فلم يكن احد غيره قادر

على القنص بهذه الدقة، واصبح اسامة المطلوب رقم واحد من طرف التنظيم.

الورم الخبيث

وذاع صيت هذا القناص الماهر بين المستضعفين واصبح عندهم بطلا مثل روبن هود سيما وانه خلصهم من
عدد كبير من رجال المافيات الذين كانوا يعيثون في الارض فسادا ويعتدون على حقوق الناس .وانضم اليه
على الاثر شبان من شلته القديمة عانوا مثله من ممارسات التنظيم ومافياته وازدادوا قناعة واخلاصا له حينما
اخبرهم عما يفعله التنظيم بحق شعب المدينة من اجل تأجيج الحرب مع الخصوم .ومع كل نجاح تحققه هذه
المقاومة السرية كان عدد المنضوين تحت لوائها يزداد وصيتها ينتشر بين الناس .لم يكن لهذ المنظمة اسم فقد
تكونت كردة فعل على الظلم والعدوان ولكن سرعان ما لقبها الناس بمنظمة" خفافيش الليل "لأنها كانت لا
تضرب الا في ليلا وفي آخر مكان ووقت يتوقعه رجال التنظيم.
وفي هذه الاثناء بدأ الالم الخفيف الذي شعر به السيد رأفت يشتد عليه حتى لاحظت السيدة نادية هذا الامر و
قلقت كثيرا لكن السيد رأفت اصر أن هذه الآلام لا تعدو عن كونها نتيجة الارهاق الذي يعانيه من عمله

المضني في التعليم، الى ان جاء اليوم الذي وقع فيه السيد رأفت
ارضا غائبا عن الوعي وهو يقوم من فراشه
فاخذوه على عجل الى المستشفى حيث اظهرت الفحوض المخبرية
اصابته بورم خبيث في الرئة .وكان وقع
هذا المرض قويا كالصاعقة على عبير فلم تصدق لاول وهلة ان
والدها قد سقط ضحية لهذا المرض الخبيث
لذا سارعت لاخذ موعد منفرد مع الطبيب المعالج لتعرف منه
خطورة الوضع:
هل الوضع خطير يا دكتور؟؟
قال الطبيب باسف :لا استطيع ان اخفي عنك نعم هو كذلك ..لكن
رجاء لا تخبريه بهذا لأن الوضع النفسي
سيفاقم من خطورة وضعه الصحي.
وما هي وسائل العلاج التي ستقومون بها؟
جلسات علاج كيماوي ..جلسات اشعة .. وكثير من المورفين..
لكن هذه كلها حلول تبطىء انتشار المرض ..الا يوجد حل جذري
للموضوع؟ عملية جراحية نستأصل فيها
الورم مثلا..
للاسف المرض اصبح في مراحل متقدمة لا ينفع معه استئصال
الورم وانا متعجب حقيقة كيف استطاع والدك
ان يتحمل كل هذه الآلام طوال هذه الفترة دون مورفين؟؟

لا اصدق انه لا يمكننا ان نقوم بشيء ما؟؟ هل هناك علاج ممكن
في الغرب كي نسافر به؟؟ انا عندي عم
يقيم هناك" ..
الطبيب :اخت عبير ..في هذا الموضوع الطب لا يملك حلا في أي
بلد في العالم ..لكن وكلي امرك الى الله
ودعي ايمانك قويا.
اجهشت عبير بالبكاء وقالت :يعني القضية قضية وقت؟؟ كم بقي
له ..اخبرني ارجوك ..لا لا بد ان يكون
هناك حل ..لا اتخيل ان افقده امامي دون ان استطيع ان اقوم بأي
شيء من اجله..
الطبيب :الاعمار بيد الله يا ابنتي ..مهمتك في هذه المرحلة الا
تظهري له انت ووالدتك أي قلق او ضيق..
اجعليه يعيش ما تبقى له من عمره وهو ينعم بعنايتكم وحنانكم.
كانت عبير عاطفية جدا لكن قوية فقد استطاعت ان تخفي قلقها
الكبير لمرض حصنها المنيع عنه لا بل حولته
الى حنان منقطع النظير من ابنة تجاه والدها حتى كانت تشعر انه
طفلها الصغير في كثير من الاحيان.
وطبيعي ان تمر الاسرة بحالة ضيق مادي كبير نتيجة غلاء ادوية
السرطان وندرتها في بلد يعاني من الحرب
ولكن الله يسر لهذه الاسرة الكريمة محسنا سريا كان يزودهم بالمبلغ
المطلوب كلما احتاجوا له وكأنه يتتبع

اخبارهم اولا بأول .لم تعرف عبير هوية هذا المحسن الكريم ولكنها
جزمت انه احد اصدقاء الوالد الكثر الذين
ساعدهم في فترة شبابهم ...فالدنيا دين ووفاء.

من اجل ضفائرها

كلف الزعيم ابو كفاح اشرس رجاله ابو الجماجم قائد سرية" جهنم "
بأن تأتي باسامة حيا او ميتا .ولم يكن ابو
الجماجم يحتاج لتوصية فبعد يومين من الملاحقات والمطاردات عاد
ابو الجماجم مبتسما ابتسامة النصر.
"هل قضيتم عليه؟ "سأل ابو كفاح بلهفة
ابو الجماجم : لا ولكننا قبضنا على اخته وهتكنا عرضها .. هكذا
سيكون انتقامنا منه افظع واشرس..
فثار ابو كفاح وامسك بقميص ابو الجماجم وشده :ماذا فعلت يا
مجنون؟؟ وما ذنب اخته حتى تنال منها؟؟
ابو الجماجم وقد تراجع مذعورا :انت علمتنا هذه الطريقة ..انت
قلت لنا لا خطوط حمراء في الحرب.
فارخى ابو كفاح قبضته عن قميص مساعده المخلص وجلس
متهالكا على كرسيه واحنى رأسه للامام باسى
وقال" لكن ليس معه ..ليس معه"..
فاستغرب ابو الجماجم : ابو كفاح ..انت رجل مناضل ..حياتك
على كف عفريت .لطالما خضت المعارك
وعرضت حياتك للخطر ..كيف يخيفك هذا الصعلوك ومن معه؟؟

فنظر ابو كفاح الى البعيد وقال بتهكم مر :اتظنه ليكتفي بموتي؟؟
اذا ظفر بي فسيذيقني اشد انواع العذاب ..لقد
كان مرافقي لاعوام ..انه يعرف كل شيء عني ..مسالكي الخفية ..
طريقة تفكيري ..نقاط ضعفي..
فاشتدت حمية ابو الجماجم وقال بكبرياء :لا تخف لن ينال منك
ونحن معك ..لن نفارقك ولو للحظة..
فاعادت هذه الكلمات الامل والطمأنينة الى نفس ابي كفاح فقال :
ابو الجماجم ..انا لا اخاف من الموت ولكن
مما ينتظرني بعده ..ماذا لو كان الشيخ مسعود الذي نستهزأ به على
حق؟؟ هل هناك حقا جهنم و عقارب و
افاعي وملائكة عذاب و حميم مستعر؟؟
"انا اصدق بوجود جهنم لكن على هذه الارض ..انها فرقتي "قال
ابو الجماجم وهو يضحك باستكبار..
الزعيم :انا كذلك لا اصدق هذه الترهات ..ان هي حياتنا الدنيا
نموت ونحيا ..ولكن..
ابو الجماجم :ولكن ماذا سيدي الزعيم؟؟
الزعيم :ولكن ماذا لو كانوا على حق؟؟ مهما كان الاحتمال هذا
ضعيفا؟؟ الا ترى الناس تمتنع عن اكل لحم
البقر ان سمعت ان هناك احتمالا ولو واحد بالمليون عن اصابتها
بمرض قاتل منه؟؟ ماذا سيكون مصيرنا؟؟
ثم ضحك ضحكة هستيرية وقال" لا لا مستحيل"..

فاكد ابو الجماجم راي زعيمه وهز براسه قائلا" مستحيل ..
مستحيل "..ثم ضحك ضحكة غبية وقال" لو ان الله
موجود ..لم يكن ليتركني اقوم بكل ما اقوم به من فظاعات ..انا
ممكن اؤمن بوجود الشيطان ..لكن الله.
مستحيل "..وعاد ليضحك ضحكته الغبية ثانية.
كان حوارا غريبا بينهما ..حوار الصوت مع صداه ... كل طرف
منهما يحاول ان يقنع الآخر بما هو مقتنع
به اصلا او بالاحرى بما يتلائم مع هواه فالاقتناع لا يكون الا لمن
يملك عقلا ..لمن يملك قلبا..
"ليتني استمعت لنيرفانا حينما حذرتني منه ..كنت غبيا "..قال ابو
كفاح هذا ببؤس شديد وضرب على فخذه
بقوة حتى كاد ينخلع ثم قال" اتعرف ما يضايقني يا ابا الجماجم؟؟
انا لا اخاف من هذه الاساطير الدينية ..لكني
منذ الآن استطيع ان ارى جنازتي ..وارى الناس التي تمشي فيها ..
ارى فيها من يخافني ..ارى فيها من كان
يحترمني ..لكن"...
ابو الجماجم :لكن ماذا يا سيدي.؟؟
الزعيم :لكن لا ارى بين هذه الوجوه كلها وجها يحبني ..لا احد ..
قال هذا وضغط على حرف الدال مقلقلا
فيه شفتيه كأقسى تعبير منه على غربته وسط هذه الشهرة الكبيرة
التي يحظى بها.

ابو الجماجم :لا يا سيدي انت مخطىء ..كيف تجزم بهذا الامر؟؟
فاجاب ابو كفاح بابتسامة ساخرة" ببساطة ..لاني لم احب احدا يوما
ما ...الا نفسي"..
"لكن نحن نحبك يا زعيم "قال ابو الجماجم بتأثر واضح" وطالما
نحن معك فلن يمسسك احد بسوء "ثم شد على
قبضة ابي كفاح بقوة مترجما شعوره بالثقة والامان لزعيمه ..ولكن
فجأة ارتخت يده وسقط صريعا ..لقد
اصابته طلقة من بندقية قنص ليلية اخترقت طلقتها زجاج النافذة.

كوابيس الدم

كانت الايام الاولى جحيما لا يطاق ولا يمكن تخيله على ليلى و
من حولها ..حاولت الانتحار عدة مرات ولم
يردعها لا موعظة دينية ولا معالجة نفسية رغم ايمانها العميق ..
وفي اوقات معينة اضطررنا الى توثيقها الى
السرير حتى لا تؤذي نفسها ..وكان هذا امرا صعبا علينا لما
يتطلب من قوة بدنية كبيرة على النساء ولم يكن
اسامة يجسر على مساعدتنا لانها كانت تجن بمجرد رؤية أي رجل
او سماع اسم أي رجل حتى لو كان
اخوها .كنت انظر اليها بحسرة وبعدم التصديق اذ لم تعد ليلى هذه
الفتاة الجميلة الشقراء التي يشع وجهها
ذكاء وحيوية بل اصبحت بقايا انسان .. اشلاء انسان ..عينان
___________معلقتان في اللاشيء ..ووجه خال من أي

تعابير حتى تعابير الخوف والحزن.
لكن ككل مصيبة تبدأ قوية وتخف مع الوقت بدأت ليلى تتقبل ما
حصل لها تدريجيا فتخلت نهائيا عن فكرة
الانتحار لتدخل في مرحلة جديدة وهي مرحلة العزلة ..تقضي
الساعات والايام وحدها دون ان تسمح لاحد
بالدخول عليها ..تعيش على الحساء والخبز حتى بدت عظامها
تنفر من تحت وجنتيها ..رفضت ان يدخل
عليها أي شخص حتى موطن اسرارها وتوأم روحها حنين ..كان
صديقها الوحيد في هذه المرحلة القرآن..
كانت تعيد قراءة سورة مريم مرات ومرات وتبكي عند قوله تعالى" **يا
ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا
منسيا** "..فتحتضن المصحف وترتجف كريشة في مهب الريح.
وظللت في هذه المرحلة فترة طويلة وانا اتنصت عليها من وراء
الباب ..اتمنى الدخول عليها لكن ارتدع
عندما اتخيل ردة فعلها ..وصبرت على ذلك حتى رأيتها تنتقل فجأة
الى مرحلة جديدة اصبحت تركز فيها
على مقطع" **فناداها من تحتها الا تحزني** "..وكأن هاتفا سماويا
اتاها ليسلي عنها وبدأت عقدة العزلة تنفك عنها
شيئا فشيئا واصبحت تستأنس بوجود احبائها قربها وخاصة انا بل
كانت تطلب مني ان انام قربا واحضنها

كالطفل الصغير الذي فقد حضن امه .لكن الجرح الذي يطيب لا يندمل بسهولة فما كان بالامكان ابدا ان تنسى
ليلى ما حصل لها ..فقد حفرت هذه الحادثة في نفس ليلى وشما بالمهانة لا يمكن ان يمحوه الزمن.
وطوال هذه الفترة السابقة كانت ليلى صامتة لا تتكلم حتى خشينا ان تكون قد فقدت القدرة على الكلام لولا اننا
كنا نسمعها ترتل القرآن ليلا .وحتى عندما كانت تطلب مني ان امكث معها او اضمها كانت تشير الي بالرمز
وكأنها كانت تتمنى كالسيدة مريم ان ينطق رضيع ما ويبرأها من تهمة لم يتهمها فيها احد اصلا الا نفسها..
كانت تشعر انها مذنبة ..مقرفة ..دنسة ..لدرجة انه في يوم من الايام دخلت لتغتسل و تتطهر كما تتطهر
النساء فسمعنا لها شهيقا في الحمام ودخلنا عليها فاذا بها متكومة في المغطس تبكي بهيستيريا وتصرخ بذعر
وتقول " انظري يا حنين ..المغطس مليء بالدم ..انا استحم بالدم يا حنين ."طبعا لم يكن هناك لا دم ولا من
يحزنون ولكن المسكينة اصبحت تشمئز من جسدها وتحتقر نفسها وبدلا من ان تعتز بانوثتها و مفاتنها كسائر
الفتيات اصبحت لا تطيق النظر الى كل ما يشير الى انوثتها في جسدها ....ومن يومها لم نعد نتركها تستحم

وحدها بل اصبحنا نساعدها في ذلك ان تطلب الامر فتسلم لنا
جسدها كما تسلم الشاة نفسها الى الجزار بدون
مساءلة او اعتراض.
وشيئا__________ فشيئا بدات ليلى تتكلم اكثر وتتحاور اكثر
وبدأت تتقبل كلام النسوة الديني لها بأن ما حصل كان امتحانا
من الله تعالى لها ولصبرها ..وكات تظهر امامهن الجلد والتصبر ..
ولكن بيني وبينها كانت تقول كل ما يجول
في نفسها" لماذا انا يا حنين؟؟ خسرت امي برصاصة طائشة ..
والآن خسرت اعز ما تملك الفتاة ..خسرت كل
شيء "ثم تتوجه الى السماء مهبط الرحمات بيديها وتقول ماذا فعلت
يا رب حتى تعاقبني هكذا؟؟ فاوصيها الا
تعترض فتجيب " انا لا اعترض يا حنين ..انا اسأل فقط .. كما
سألت الملائكة عن حكمة خلق الانسان ..اين
الحكمة مما جرى لي وكل ما يجري لي يا حنين؟؟ اين الحكمة؟؟ انا
لا اعترض بل فقط اسال ..ان الله لا
يرضى ان يذل المسلم .. اليس كذلك؟؟ فلم سمح لهذا بان يجري
لي؟؟ اتراني لست مسلمة؟؟ اتراني اغضبته
بشيء؟؟
لم اعرف كيف اجيبها اذ لم اكن متعمقة بالدين كثيرا ولكم تمنيت لو
كان اسامة معنا ليخفف عنها ..لكني

تذكرت ما يقوله لي دائما فقلت لها" ان الانسان مبتلى ..واشد الناس
ابتلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل ..والله
يحبك ويريد ان يرفع من درجاتك الى درجة الصديقين ..فامتحنك
باعز ما تملكين ليرى ان كنت ستصبرين
صبرا جميل" ..
نعم انا اتقبل هذا .. ولكن لم تعد الحياة تعني لي أي شيء ..اريد
ان اموت وانتهي من هذا العذاب ..والاقي
ربي واجد في جنته ما وعدني حقا ..هل هذا اعتراض ايضا؟؟
لا اعرف يا ليلى ..لا اعرف ..هذه اسئلة صعبة ..لا استطيع ان
اجيب عليها ..ثم قلت وكاني أفجر قنبلة" لم
لا تسألين اسامة؟؟"
اسامة؟؟ صرخت ليلى بغضب ودهشة ..اسمعي يا حنين .هذه آخر
مرة اريد ان اسمع فيها اسمه او اسم أي
رجل آخر ..اسامة بالذات هو سبب ما حصل لي ..لقد بدأ حربه
العبثية ضد اصدقائه وحولهم الى اعداء دون
ان يبالي بحمايتي .. لقد تركني فريسة سهلة لهم ..واردفت بتهكم ..
هذا السوبرمان ..ففضلت ان اصمت في
هذه الظروف اذ لم يكن الوقت وقت نصائح ..وضممتها الي بشدة
فبكت حتى بللت دموعها ثيابي..
ورغم كل التحسن الذي طرأ عليها فلم تعد ليلى طبيعية كما كانت
ابدا ..كانت تقوم في احيان كثيرا من الليل

وهي تصرخ" انهم هنا ..انهم يريدون ان يعتدوا علي من جديد ..
انقذوني منهم ..ارجوكم "..ثم تصرخ
بهستيريا وترطم رأسها بالسرير مرارا حتى يسيل الدم منه ..فكنت
اسارع اليها واضمها الي واقول" ما من
احد هنا ..انه كابوس ..ثم لم تخافين؟؟ انظري .. معي سكين ..
ان تجرأ احد واقترب منك ساغرزها في
صدره "..فتهدأ وتستكين وتنظر الي بذل وانكسار وتقول لي" لم لا
تتركي هذه السكين معي يا حنين؟؟ اريد ان
اضعها تحت وسادتي "..لم اكن لاجيبها بالطبع بل اضمها الي
حتى تشعر بالاطمئنان وتغفو بين يدي ..طبعا
لم يكن من الممكن ان انفذ لها طلبها فانا لا آمن ان تؤذي نفسها
وغيرها بهذه السكين اذا انتابتها احدى تلك
النوبات القاسية.
المهم بعد شهور من هذا العذاب المتواصل والكوابيس التي لا
تنتهي ..علمنا ان قضية ليلى لا يمكن ان تحل
نهائيا طالما ظلت في هذه المنطقة التي اعتدي عليها فيها ..فهي
لن تأمن الا يعودوا اليها من جديد ولا تجرؤ
ان تخرج وتواجه الناس الذين يعرفونها ويعرفون ما جرى لها ..
فاخترنا ان ننقلها الى العاصمة عند خالتي
سهيلة ولبثت هناك فترة طويلة كان اخوها يرسل لها خلالها عبري
بمصروفها دون ان تشعر او تعرف.

الخفاش والجرذ

كان ما حصل لليلى قاسيا جدا على اسامة قاسيا لدرجة انه بقي
ليال كاملة لم يذق فيها طعم النوم؛ لا يأكل ولا
يشرب الا من غذاء وحيد الا وهو نار الانتقام .وبدأت باكورة خطة
الانتقام باغتيال ابو الجماجم في عقر دار
الزعيم نفسه مما اجبر هذا الاخير على اتخاذ اقصى تدابير الحيطة
والحذر فلم يعد يذهب الى اي مكان الا
بحراسة مشددة .ولكن ماذا تفلح الحماية امام تصميم وارادة صاحب
الشريطة الحمراء؟ دخل ابو كفاح مطعمه
المفضل" نجمة البحر "مع حفنه من رجاله واستعد ليتناول طبقه
المفضل من ثمار البحر ..لكن لم تمض بضع
لحظات الا وسقط رجاله صرعى في غضون دقائق ..واحتل المكان
ملثمون بثياب سوداء احاطوا بالزعيم
الذي بدا مذهولا من سرعة تنفيذ لعملية ودقتها.
من انتم؟؟ قال الزعيم وعيناه تدوران في محجريهما من الرعب.
فارتفع صوت من وراء الجنود المدججين وقال :نحن زبانية العذاب
جئنا لتاخذك الى الجحيم الذي تستحقه.
فظن ابو كفاح انه في حضرة كوماندوس من الجبهة الوطينة فقال :
احذركم ان مسستموني بسوء سيدمر
اتباعي قراكم فوق رؤوسكم ..لقد استلمنا البارحة عبر المرفا عشرات
آلاف صواريخ الغراد من المانيا

الشرقية.

"الصواريخ لا تنفع ضد الاشباح "قال الصوت بثقة.

الزعيم :من انت؟؟ اظهر نفسك ان كنت شجاعا..

فاظهر الشبح نفسه فإذا هو اسامة يشق طريقه بطء وسط اتباعه مرتديا سترة سوداء تظهر عضلاته المفتولة

عاصبا رأسه بشريطته الحمراء التي تميزه ..فارتجف ابو كفاح من الخوف وهو يرى اسامة يتقدم نحوه

بخطى وئيدة وثابتة وقال :اسامة؟؟ اهذا انت يا صديقي الوفي؟ صدقني يا اسامة اني لم آمر بالاعتداء على

اختك ..ابو الجماجم تصرف هكذا من بنات افكاره وقد لقي المصير الذي يستحقه على يديك.

اسامة بهدوء : زعيم !!ما من جريمة ترتكب في هذه المدينة الا ولك كفل منها ..اما بالامر او بالايحاء او

بتعاليمك القذرة التي تبثها بين الناس .انت الذي قضيت على اخلاقيات الحرب.

ابو كفاح :انا مستعد ان استر عرض اختك ..ازوجها لمن شئت .. اتزوجها انا ان اردت..

اسامة ببرود :تحمل عارها اسهل علي من ان ازوجها لوحش مثلك..

حاول ابو كفاح ان يستعيد شيئا من رباطة جأشه فقال :انتبه يا اسامة ..انت تمشي في طريق خطأ ..نحن اكثر

منكم وسنقضي عليكم بسهولة ان استمررتم في هذه المعركة.
اسامة باستهزاء :انتم الاكثرية ونحن النوعية..
ابو كفاح مدهوشا :اسامة ..انت كنت تتنصت لكل كلمة اقولها ..
اليس كذلك؟؟ انت لم تكن مجرد مرافق
يطيعني طاعة عمياء كما كنت اظن .. كنت تخطط منذ البداية
لانقلاب ضدي.
فهز اسامة رأسه بالايجاب وقال :نعم اتظن ان اصراري الدائم على
مرافقتك في سيارتك المصفحة كان من
اجل حمايتك؟ ام تظنني غبيا كهؤلاء الذين قضوا في انفجار
سيارتهم التي تتقدم موكبك.
ابو كفاح :ارجوك اسامة فلننس الماضي .دعنا نتفاوض و نحن
مستعدين لنحقق لكم كل مطالبكم ..هل تريدون
زيادة في المعاشات ..مناصب قيادية؟
اسامة مستهزئا :اتظن كل الناس تباع وتشرى مثلك يا زعيم..
ابو كفاح بغضب :لا تكبر رأسك .انت تعرف اننا نستطيع القضاء
عليكم بسهولة فانتم مجرد حفنة من المقاتلين
لا يتجاوز عددكم عدد اصابع اليد.
اسامة مستهزئا :وكيف تحاربون اهدافا غير مرئية ؟ نجن كالجن
نراكم من حيث لا ترونا ..نحن كالخفافيش
نظهر من الظلام واليه نعود.

ابو كفاح وقد بدأ الرعب يتسلل الى قلبه :اسامة ..دع احقادك
الشخصية جانبا .. فكر بمصلحة المدينة ..لا
يجوز ان نقوم بحرب داخلية بيننا والخصم يتربص بنا على
الابواب..
اسامة :انا لا انال ممن يوجه بندقيته الى الخصم ..ولكن ممن
يستعد ان يوجهها الى الداخل لأجل الاوامر ..انا
لا انال من المقاتل الشريف ولكن ممن يقتل ويسرق وينهب ابناء
شعبه ويفرض عليهم الخوات.
فحاول ابو كفاح ان يبرر هذه الفظاعات بقوله :نحن نحتاج للاموال
يا اسامة لاجل تمويل التنظيم ..هذه ليست
خوات ..انها ضرائب ..ثم تذكر ميل اسامة للدين فقال لا بل انها
زكاة اموالهم ..نأخذها من اجل حمايتهم
اسامة :الاموال التي تتلقوها من الاشقاء ومن دول المحور الشرقي
كافية لتمويل التنظيم ..انتم تأخذون هذه
الاموال الى جيوبكم ..انتم تأكلون القريدس وثمار البحر والكافيار
فيما يتضور شعبنا من الجوع ويقف في
طوابير الخبز ..أي زكاة هذه التي تاخذها من الفقير الى الغني؟؟.
وهنا اسقط في يد ابو كفاح وادرك انه خسر المعركة بعد ان استنفذ
جميع اوراقه فاسترجع شيئا من شجاعته
وقال :حسنا .لن اجادل اكثر من هذا ..انت انسان مثالي تبحث
عن المدينة الفاضلة .ماذا تريد ان تفعل بي؟؟

اتريد ان تقتلني؟؟ افعل هذا ولكن ارجوك وفر علي المزيد من
مواعظك الطوباوية تلك ..نحن لم نعرف كيف
تخلصنا من الشيخ مسعود..
اسامة : لا لن اقتلك .اتعرف اني اشكرك انك وضعتني مع الريس
ابي صقر ..ثم اردف بتهكم :استاذي
الروحي الذي لن انسى فضله .. في كثير من الاحيان كانت
خطوط التماس هادئة وخالية من طرائد القنص..
لقد علمني ان اصطاد الجرذان ..كانت الجرذان حذرة ..تطل
رؤوسها اولا ..فان انست الى غياب العدو..
خرجت لمسافة قليلة ..فان انست اكثر الى الهدوء ..خرجت
لمسافات اطول ..كان ابو صقر مختلفا عني ..انا
كنت احب ان اصطاد الجرذ ما ان يخرج ..كنت احب الضربات
السريعة الدقيقة ..في الرأس تماما ..اما ابو
صقر فقد كان استاذا في فنون الاغواء والدهاء ..كان يردد علي":ان
قتلته مثلك ..فبم اسمتع في بقية الوقت؟؟
ان لذتي في هذه الحياة ان اترصد الجرذ ..ان اشعره بالخوف من
اين ستأتي الطلقة ومتى ستصيبه ..ان اجعل
حياته في ذعر دائم ..حتى اذا خرج واطمأن ونسي خوفه ..اصبته
بالطلقة القاتلة وقبل خطوتين فقط من نيله
لحريته والخروج من مرمى بندقيتي زوزو"..

انصت ابو كفاح وهو لا يفقه شيئا ..فيما تابع اسامة ببرود :اخرج
يا ابا كفاح ..عد الى تنظيمك.. عد الى
زواريبك ..التي اعرفها شبرا شبرا ..وفترا فترا ..لم يحن وقتك بعد..

قتلى على الحاجز

ودخل مرض السيد رأفت مرحلة خطيرة اقتضت نقله الى مستشفى
العاصمة الرئيسي، ورغم ما في هذه
الرحلة من مخاطر فقد اصرت عبير على ان ترافق والدها الى هناك
فاستقلا سيارة تاكسي يقودها جارهم ابو
شريف حيث جلست عبير في الخلف واسندت رأس ابيها على
حجرها، وانطلقت سيارة التاكسي تحت جنح
الظلام حيث حاول سائقها المخضرم تخطي حواجز الميليشات
المتناثرة على ارجاء الطريق مستعينا بخبرته
في هذا المجال .لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن فلم ينجح
السيد ابو شريف في الالتفاف حول حاجز
ميليشيا طيار اقامته الجبهة الوطنية على جانب الطريق .فاضطر
ان يوقف سيارته خشية ان يطلق المسلحون
النار..
تقدم مسلحان من السيارة بخطوات وئيدة واجبرا السائق على النزول
منها ، فقال لهم متوسلا " ارجوكم لا
تؤذونا نحن قوم مسالمون"

واخرج من جيبه ورقة ممزقة قائلا" انظروا معي تصريح من القديس نفسه يسمح لي المرور ..لقد كنت
صديقا له في ايام الدراسة"
ونظر الطويل الى الورقة ثم مزقها قائلا" انتهت صلاحيتها ..لم يعد بيننا وبينكم الا هذا" ..واشار بيده الى
عنقه اشارة الذبح..
ثم ركله برجله واجبره على الركوع ووبصق في وجهه وقال" عليكم اللعنة ..الله يخلصنا من قرفكم ..كلكم
تستحقون الموت ..لا بل ان الموت قليل عليكم ..لماذا لا تعودوا الى الصحراء التي جئتم منها ايها الكلاب
الانجاس؟؟ وتتركوا لنا هذا البلد؟؟"
مسح ابو شريف البصقة عن جبينه وقال متوسلا :نحن من هذه البلاد ابا عن جد ..ارجوكم نحن مسالمين..
فداس الطويل على عنقه وقال :كلكم تقولون هذا ..ماذا تخبىء في السيارة ايها القذر؟؟ ها ..اخبرني..
متفجرات ام صورايخ؟؟ ام لعل هذه السيارة ملغومة تريد ان تركنها في احد احيائنا؟؟
ابو شريف متوسلا مرة اخرى :ارجوكم ليس معي اي شيء ممنوع .. فتشوا السيارة ان اردتم معي فقط
مريض في حالة حرجة وينبغي نقله الى العاصمة في الحال.

فسلط المسلح القصير الضوء على مقعد السيارة الخلفي ورأى وجه
فتاة جميلة محجبة يشع نورا ..فبهت من
جمالها وقال لصديقه :مريض؟؟ انا لا ارى الا فتاة في غاية
الجمال ..ثم انه انزل المصباح قليلا ليرى انها
تضع على حضنها رأس رجل بدا عليه الهزال الشديد.
فقال لصاحبه" لكن معه حق ..هناك رجل يحتضر في هذه
السيارة"..
فتقدم الطويل ورفع رجله عن ابي شريف بعد ان غمز رفيقه ليأخذ
مكانه وفتح الباب عنوة وامسك عبير من
يدها وشدها خارجا بقسوة حتى كاد يخلع كتفها ..ثم نظر في وجه
السيد رأفت بمتعن وقال" ما دمت تحتضر
ايها السيد فلم لا تسمح لنا ان نعجل في موتك "..فأجابه رأفت بيقين
"**فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون**".
فثار غضب المسلح الطويل وقال" ايها القذر ..اتظن اننا في مسجد
حتى تلقي علينا مواعظك؟؟ وشرفي لندك
كل مآذنكم حتى تصبح موئلا للبوم والغربان ..لا بل سنجعل منها
اصطبلات لخيولنا و زرائبا لبهائمنا كما
فعل اجدادنا"
فاجاب السيد رأفت بنفس متحشرج ولكن بثقة " **لن يضروكم إلا
أذى**" ...

فامسك المسلح بقميص السيد رأفت ووضع يديه على رقبته قائلا "ساقتلك بيدي العاريتين هاتين واكفنك بجلد
خنزير حتى تحرم من الدخول الى جنتكم ..جنة العذارى والخمر والغلمان"..
فابتسم السيد رأفت ابتسامة صفراء وقال "ان الله لا ينظر الى اجسادنا بل الى اعمالنا".
واستشاط الطويل غضبا وفقد اعصابه فالتفت الى صديقه وقال" انه يستفزني ..انه يدعي الشجاعة " ..ثم التفت
الى عبير وقال" اتعرف؟؟ لن اقتله ..لنرى كيف سيحافظ على رباطة جأشه ان اغتصبنا ابنته امام عينيه"..
وهنا اعترض القصير وقال" لا يا صديقي ليس الى هذا الحد .. حتى الحرب لها اخلاقيات ..نقتل ونذبح نعم..
لكن لا ننتهك اعراض الناس ..ثم انه نظر الى عبير بشفقة وقال "ثم هي تشبه العذراء مريم كما ترسمها
ايقوناتنا"..
فصرخ الطويل بقسوة وقال" دعك من مريم ويسوع ..لو كانوا موجودين حقا ..لخلصونا من هؤلاء الانجاس
منذ زمن ..لا يغرنك منظرها الوديع ..كلهن عاهرات من الداخل"..
حاولت عبير المقاومة والتملص من قبضة المسلح الا انه ضربها بكفه ضربة قوية فخارت قواها وانهارت

ارضا ..ثم نظر في عيني السيد رأفت وقال" ارني كيف ستحافظ على شرفك ايها النذل؟؟ من سيخلصها مني الآن؟؟"

وهاله ان يرى ان هذا المريض المحتضر يرد على نظرته بنظرة حادة كالصقر ادخلت في قلبه الرعب وقال

"ربي وربك سيخلصها من يدك ..لن تمسها بسوء ايها الفاسق"..

ودهش الجميع لرؤية المسلح الطويل يسقط ارضا صريعا في ثانية ويلحقه القصير بعد ثانيتين حيث احدث

وقوعه على زجاج السيارة الامامي دويا هائلا..

وعلى الفور ركب ابو شريف في السيارة وانطلق فيها مسرعا قبل ان يأتي سائر المسلحين وشرع في

الصراخ كالطفل" انها معجزة ..رب العالمين انقذنا منهم "..فيما ضمت عبير رأس ابيها الى صدرها وقالت

"ليت لي يقينك يا ابت" ..

فاجابها ابوها بثقة" لقد انقذت يوما ما فتاة مسيحية على احد حواجزنا من مصير مماثل فما كان الله ليضيعني

"..ثم ان التعب انهكه واخذته سنة من النوم.

الفارس يترجل

ودخل مرض السيد رأفت مراحله الاخيرة؛ ومع ذلك فقد كان دائم الابتسام ويردد عباراته المأثورة" إذا أحب

الله عبدا ابتلاه بالمرض ليكفر عنه سيئاته ويطهره "على رغم الآلام
المبرحة التي تنتابه فلم يكن السيد رأفت
يشكوها؛ لأحد بل كان مثابرا ومجاهدا وعاملا كالجبل لا يكل ولا
يمل ولا ينحني لأي ريح مهما كانت عاتية
ومدمرة !!! ولكن هذا الجبل الشامخ الذي صمد امام الريح كان
ينحني لنسمة رقيقة ويشعر بوجودها قربه ولو
كانت بعيدة عنه اميالا فلم يخف السيد رأفت عن عبير أي شيء
تماما كما كانت تفعل معه ..وحدث مرة ان
فاجأته نوبات الألم امامها، فكانت أول مرة ترى فيها عبير هذا
العملاق الجميل يتلوى ويبكي كطفل صغير...
ولاول مرة ترى دموعه تنهمر من عينيه، وهو لا يردد إلا قول "
أستغفر الله العلي العظيم اللهم أغفر لنا بكل
ذرة الم معاصينا وذنوبنا وأعفو عنا العفو الكريم واصفح عنا الصفح
الجميل "..عبارات تزداد تقطعا مع
ازدياد الألم ولكنها لا تتوقف ابدا .وكانت نوبات الألم متقطعة وعلى
فترات متباعدة في بادىء الامر ولكن
بدأت وتيرتها تتسارع ... فبدأ المقربون من السيد رأفت يدركون ان
هذه بداية النهاية!!!!!!!!!
لقد تعرض السيد رأفت لفقدان الكثير من وزنه وشحب لونه تحت
تأثير المرض الذي يسري في جسده

سريان النار في الهشيم، ولم يعد يستطيع أن يقرأ جريدته المفضلة يوميا ولم يعد يستطيع أن يمسك بمصحفه
ليقرأ فيه كما تعود بعد صلاة الفجر والعشاء يوميا، فبدأت عبير في ملازمته والعمل على كل ما يختص به
سواء كان هذا مواعيد الأدوية او الاهتمام بنظافته الشخصية وتنظيف حجرته إذ لم يكن يطيق أن يدخل عليه
أحد أو يراه هكذا غيرها !!وكانت السيدة نادية مشغولة بتربية أبنائها فتركت لبنتها البكر شرف خدمة والدها
والعمل على راحته تحت إشرافها من آن لآخر لمجرد الاطمئنان أن الأمور تمشي على ما يرام !!! وكثيرا ما
كانت عبير تجلس لتمشط له شعره الناعم أو تحلق له ذقنه وهو مستسلم كطفل صغير وديع وهادئ لا يشكوا
أبدا حتى لو آلمته عرضا ..كانت تقرأ له الأحداث من هنا وهناك فيستمع ويبتسم، وبمجرد أن تهب واقفة
يقول لها لا تتركيني وحدي؛ بل ضعي يديك تحت رأسي وضميني إليك، إني أشعر بالبرد عندما ترحلين
فكانت تهرع إليه لتضمه لصدرها وتضع يدها تحت رأسه حيث ينام لساعات وهي تبكي وتدعو الله أن يخفف
عنه!!!
وازداد الألم، وكان لا بد من ذهابه إلى المستشفى لأن البيت لم يعد صالحا لرعايته، وكانت الأم تتناوب مع

أبنتها على رعايته فأسر لها أنه لم يعد يرتاح مع أحد غيرها، ولا
يريد أن يبقى معه غيرها، لذا فكان يقول لها
عندما كانت إدارة المستشفى تهم بإخراج الزائرين أختبئي في الخزانة
حتى لا يروك لتظلي معي؛ و يضحكان
سويا كأنهم اطفال ..ثم يقضيان الليل يسبحان ويسمعها القرآن الذي
يحفظه حتى تصحح له لو اخطأ ؛
ويتذاكران سوية ايام الطفولة والمراهقة وكل شئ جميل مرا به، وبعد
ذلك كان ينام بين يديها فتحتضنه وكأنها
تغذيه بأنفاسها حتى يستطيع أن يستمر في مكافحة المرض والتغلب
عليه!!!
وفي صباح اليوم الاخير تحلى والدها بنشاط غريب ..لدرجة انه
استطاع الجلوس وتناول فطوره بنفسه على
غير عادة وبشهية منقطعة النظير ..تفاءلت عبير خيرا وداخلها
الامل لاول مرة ان تتحسن صحته ويعود
معافى كما كان؛ فالغريق يتمسك بقشة من الامل؛ ولم تدر عبير ان
نشاطه هذا هو من حلاوة الروح؛ وكأنه
يريد ان يودع هذه الدنيا الفانية .ولم تطل فترة النشاط هذه؛ اذ بدأ
ينتكس مجددا في فترة الظهيرة ..فناداها
لتقترب منه واسند رأسه على صدرها وبدأ لسانه يثقل عن الكلام
فاومأ لها باصبعه اشارة ما فلم تفهم عليه..

فجاهد نفسه وقال" ارو لي قصة "..واستغربت الفتاة طلب ابيها هذا ..فهذه اول مرة يطلب منها هذا الامر..
لكنها لم تستطع ان ترفض طلبه..
"كان يا ما كان ..في قديم الزمان ..كان هناك اميرة حلوة اسمها عبير ..وكان الفرسان يتنافسون لطلب يدها..
لكن عبير كان قلبها معلقا برجل آخر ..فارس شامخ كالجبل ترى في عينيه صورة والدها الحنون "..ثم خنقتها
العبرات وعبء مرض والدها والم الحب القديم الذي لم تتدمل جروحه بعد، فتوقفت وضمت رأس ابيها الى
صدرها بقوة ثم نظرت في وجهه فرأته يبتسم و يشهق شهقة يلفظ فيها انفاسه الاخيرة ..وظلت ظلال
الابتسامة مرتسمة على وجهه الابيض كالقمر ليلة البدر ..فضمته ضمة اخيرة الى صدرها وتمتمت" لا ايها
الفارس ..لا تتركني وحدي الان "..وقبلت جبينه الطاهر ثم اجهشت بالبكاء حتى غابت عن الوعي.

اشواق الافريقي

سار حسام بجدية في اجراءات الحصول على جنسية هذا البلد الاوروبي ..ومضت الايام والاشهر والسنون
حتى اصبح موعد الحصول على الجنسية في الافق القريب كما اكد له اصدقاؤه في دوائر العمل الحكومية،

وبالفعل ما هي الا ايام حتى رن هاتف حسام في بيته يخبره ان
مسألة الحصول على الجنسية اصبحت مسألة
ايام ولا تحتاج الا الى اجراءات قانونية روتينية .فذهب حسام الى
المسجد المجاور الذي تركه لمدة شهور
ليصلي صلاة الشكر .ولفت سمعه هناك صوت انسان يجود القرآن
ولكن يتعتع فيه فاقترب منه فاذا هو شاب
في مقتبل العمر داكن البشرة اجعد الشعر وافطس الانف بحيث
يوحي شكله انه من احد البلدان الافريقية..
تقدم حسام وسأله بالانجليزية :ما اسم الاخ؟
اغلق الشاب المصحف وقال وهو يبتسم ابتسامة واسعة افترت عن
اسنان بيضاء :دنجوا كوتونو.
حسام :انت من مهاجري افريقيا اليس كذلك؟
دنجوا :لا انا ولدت هنا ..لكن اجدادي من افريقيا ..وانت من اين؟؟
وفاجىء هذا السؤال حسام مع انه متوقع وكانه نسي الى اين ينتمي
ومن اين جاء فقال" : انا؟؟ انا من الشرق
الاوسط "..ليقينه ان هذا الشاب لن يعرف بلده بالتحديد
فدهش دنجوا وارتسمت ابتسامة مضيئة على وجهه :حقا؟؟ من اي
بلد ؟ بلاد الشام التي باركها الله ام من بيت
المقدس؟؟ ام لربما من مهبط الوحي نفسه؟؟
فهز حسام رأسه بأسى وقال :اخي في الاسلام ..هذه الاسماء لم
تعد موجودة ..لقد قسم الاستعمار بلادنا .ثم

تنبه الى امر ..فسأل:

"لكني كنت ازور المسجد دوريا منذ سنوات ولم اكن اراك فيه ..هل كنت في منطقة اخرى؟؟"

دنجوا :لا ان من سكان هذه المنطقة منذ زمن ولكني رجعت الى الاسلام حديثا...

حسام :رجعت؟؟ هل كنت مسلما وارتددت عن هذا الدين؟؟

دنجوا :بالطبع ..الا نولد كلنا على الفطرة؟؟ الا نولد كلنا مسلمين؟؟

حسام بتأثر شديد :صدقت ..ان ايمانك اقوى من ايماني يا صاح..

دنجوا :حاش لله، ما انا الا عبد فقير كان على شفا جرف هار من النار لولا ان تغمده الله برحمته .والحمدلله

ان هداني الى ان التقي برجل من ارض الاسلام الأولى ليعلمني ما جهلت من ديني..

حسام وقد دمعت عيناه :بارك الله فيك يا اخي ..لكن اسمح لي الا اناديك دنجوا من الآن فصاعدا ..انت

بلال ..تيمنا ببلال الحبشي صاحب رسول الله..

سر دنجوا كثيرا بهذا الاسم وشكر حسام حتى انه كاد يقبل يديه وانهمر الدمع غزيرا من عينيه حتى لمعت

وجنتاه السوداويين تحت انعكاس اضواء فوانيس المسجد...

ماذا يبكيك اخ بلال؟؟ سأل حسام مستغربا؟؟

قال دنجوا بصوت متهدج" مشتاق"..

حسام :مشتاق لمن؟؟ لاهلك؟؟

دنجوا :نعم ..مشتاق لاهلي وأخوتي..
حسام :بامكانك ان تزورهم .. الاسلام لم يجبرك على اعتزالهم بل اعتزال عقيدتهم فحسب..
دنجوا :ما هؤلاء قصدت ..هؤلاء ليسوا بأهلي ..اهلي واخوتي واحبائي هم المجاهدون في ارضكم الطاهرة..
هم الحجاج في بيت الله الحرام ..هم اخوتي المحاصرون تحت نيران الاحتلال ..ثم توقف عن البكاء لحظة
وقال وقد داخله بريق من الامل" ممكن تاخذني معك؟؟ انا اعرف انك لا تطيق صبرا ان تعود الى ارضك..
خذني معك"..
صمت حسام" صمت القبور "فتابع دنجوا بحماس" انا حداد ماهر .. استطيع ان اعمل في اي مكان على وجه
الارض ..ارجوك خذني معك "..ظل حسام على صمته ثم نطق الجوهرة اخيرا وقال" :انا لست بالرجل الذي
تظنه "وانسحب وسط دهشة دنجوا.

العودة الى الوطن

وجاء اليوم الموعود المنتظر منذ اربع سنين وذهب حسام ليقسم على يمين الولاء للبلد الاوروبي الذي يقيم فيه
كآخر خطوة في مسلسل حصوله على الجنسية .واصطحب معه زوجته كريستين التي كادت تطير من الفرح

لحصول زوجها على الجنسية وما سيجره هذا من تحسن مركزه
الاجتماعي .وطلب القاضي من حسام ان
يضع يده على الدستور ويقسم بالولاء للدولة ..مد حسام يده ولكن
لسانه انعقد وابى ان ينطق بالقسم .ودهش
القاضي لهذا الموقف الغريب الذي يواجهه لاول مرة وظن ان حسام
مريض او يعاني من الاعياء ..وتناولت
كريستين كوب ماء من الساقي لعلها تساعد زوجها على التقاط
انفاسه لكن بدون فائدة ..لقد غيرت كلمات
دنجوا حسام الى الابد اوبالاحرى بعثت الروح في حسام القديم.
غادر حسام مبنى القنصلية وزوجته كريستين تجري خلفه تحاول
اقناعه بالعودة دون فائدة .وصل حسام الى
منزله وشرع في حزم حقائبه ..وقال لكريستين :سنعود...
كريستين بغضب : ستعود؟؟ الى اين؟؟
حسام :الى موطني..
كريستين :تعود الى ارض الحرب والويلات؟؟ اسمع يا حسام ..هذا
موطنك ..الم نحسم هذا الموضوع من
قبل؟؟
حسام :كنت مخطئا والتراجع عن الخطأ فضيلة؟؟
كريستين :اذن انت مستعد لتتخلى عني..
حسام :انت التي تتخلين عني ..المراة في عرفنا تلحق زوجها الى
أي مكان..

كريستين :لكن انت لا تأخذني الى أي مكان؟؟ انت تاخذني الى الجحيم..
حسام :جحيم الوطن ولا جنة الغربة ..اسمعي يا كريستين يا حبيبتي ..انا جئت الى هذه البلاد لاتعلم ومن ثم
اعود وافيد بلدي ..اقامتي كانت مؤقتة في الاصل ..لكن غرتني هذه الحضارة الزائفة ..هذا العمران
المتطور الخالي من الروح ..انا ادخل قصور الشانزليزيه هنا ولا ارى الا ابنية فارغة منمقة كالعجوز
الشمطاء المتبرجة ..اين هذه القصور من مسجد الرحمة المتواضع الذي نشأت فيه؟؟ كنت اصلي فيه واشعر
بحفيف اجنحة الملائكة تحيط بالمصلين..
كريستين :لا تكلمني مثل النساك والرهبان ..انت مهندس ناجح وبنيت مستقبلك في هذا البلد..
قاطعها حسام :من ينسى ماضيه لا مستقبل له ..اذا كان دنجوا الذي اعتنق الاسلام حديثا مشتاقا لأرض
الاسلام فكيف لا اكون انا مشتاقا لها؟؟ كريستين يا حبيبتي ..ان كنت معي فمم تخافين؟؟
كريستين :لا يا

حاول مرة اخرى ان يشغلها ولكن دون جدوى..وظل يحاول حتى
يأس وخرج من السيارة ليركل العجلة
بقوة ..منهالا على السيارة بالشتائم القبيحة ..وفي غمرة غضبه سمع
صوتا من الخلف يسأل" هل تحتاج الى
مساعدة؟؟"
فتفاجأ ابو كفاح بهذا الرجل الي خرج من الظلام فجأة وسأله بحذر
"من انت ؟؟ من اين اتيت؟؟"
انا حارس المبنى هناك واشار الى مبنى على بعد مائة متر ..
سمعت جلبة هنا فجئت لاستطلع..
قال ابو كفاح بسخط : لا اعرف ماذا جرى لهذه السيارة؟؟ لم يكن
بها أي عطل حينما توقفت لاساعد زوجتي
...
فقاطعته نيرفانا قائلة بحدة :عشيقتك..
فنظر اليها شرزا وتابع دون ان يكترث :في حمل امتعتها ثم عدت
الى سيارتي فلم يعمل المحرك..
"دع الامر لي اذن "قال الغريب ثم فتح باب الصندوق الامامي
وتفحص المحرك فلم يجد به عطلا فانتقل الى
شرائط الكهرباء وتنبه الى كون احد الشرائط مقطوعا فقال" يبدو ان
عندك شريطا مقطوعا ..لا تقلق ..انه
امر سهل ساصلحه لك في دقائق" ..__________

وبالفعل ما هي الا دقائق حتى اصلح الغريب العطل ودار المحرك من جديد..
شكرا لك يا ايها الشاب ..كم تريد مكافأة لك؟؟ قال ابو كفاح وفتح حقيبة الدولارات التي معه واخرج رزمة
الف دولار منها واعطاها للغريب قائلا" تفضل ..هذه لك كلها فانت تستحقها ..لقد انقذتني من ورطة"..
"في الحقيقة انا اريد شيئا ارخص من هذا بكثير "قال الغريب..
حقا؟؟ ماذا تريد قل لي ايها الغريب؟؟ وانا جاهز..
فنزع اسامة قبعته و لحيته المستعارة وقال بنبرة صوته الحقيقية" اريد حياتك "ثم اخرجه بقوة من السيارة
وطرحه ارضا
جن جنون ابو كفاح وقال" انت؟؟ ما الذي جاء بك الى هنا؟؟ كيف عرفت؟؟"
لم يجبه اسامة باي كلمة الا ان خروج نيرفانا من السيارة واحتمائها بأسامة كشف الحقيقة
فاسقط في يد ابي كفاح وقال" حتى انت يا نيرفانا ..هذا آخر ما كنت اتوقعه ..تخونيني بعد كل ما فعلته لك"
فاجاب اسامة بديلا عنها" لم يعد اسمها نيرفانا ..انها فاطمة الآن"..
فضحك ابو كفاح بيأس" فاطمة؟؟ هذه العاهرة تسميها فاطمة"..
اجابت نيرفانا وهي تنظر في عيني اسامة بحبور ماذا علي ان اقول كي تكتمل القصة ؟؟" **وما أبرئ نفسي إن**

النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي .." اليس كذلك يا اسامة؟؟
"بلى "قال اسامة باسما" إن ربي غفور رحيم"
ثم توجهت نيرفانا الى الزعيم فقالت " وتلك نعمة تمنها علي يا زعيم
ان استبحت جسدي ورميته للكلاب من
اصدقائك تنهش به ..انت لم تترك لك صديقا يا زعيم "قالت
نيرفانا" ..اصررت ان تكسب تبجيل الناس
بالخوف والرعب لا بالاحترام ..فانظر كيف كانت خاتمتك"..
"خاتمتي؟؟ "قال ابو كفاح ونظر مرتعبا الى اسامة" ..لا يا اسامة ..
لا تقتلني ..انا اريد ان اعيش ..انا لم اعد
اشكل خطرا عليك ..انظر ها هي حقيبة سفري ..انا مغادر الى
المانيا ..وان شئت خذ اموالي التي وضعتها
في حساب نيرفانا .. انا لم اعد اريدها ..لكن اتركني حيا ..
ارجوك ..صدقني لن تر وجهي بعد الآن"..
لم يرف جفن لاسامة وهو يسمع كلام الزعيم وقال بعد صمت بدا
دهرا لابي كفاح" ذاكرتك ضعيفة يا زعيم..
لقد نسيت ما اخبرتك اياه عن الجرذ الذي انوي اصطياده قبل
خطوتين من فراره من مرمى بندقيتي ... لا
تخيب املي فيك مرتين يا زعيم ..لقد خاب املي فيك اول مرة حينما
رأيت حقيقتك ..والآن يخيب فيك املي
للمرة الثانية حينما تتسول حياتك ..الا يكفي انك عشت ذليلا
جبانا؟؟ على الاقل واجه الموت بشجاعة"..

"كن واقعيا يا اسامة ..كيف يواجه الموت بشجاعة وهو يعرف ما ينتظره ".. قالت نيرفانا..

هز اسامة راسه موافقا ثم حمل جالون البنزين كان قد خبأه قربه ورشه على ابي كفاح المرمي ارضا، فراح

هذا الاخير يتلوى في التراب كالافعى الجريح ويصرخ" لا ارجوك .. لا تحرقني بالنار ..ارجوك"..

امسك اسامة بعود الثقاب بيد مرتجفة وهم بالقائه على الطريح ارضا لكنه تمالك اعصابه وعاد ليطفئه بيده

قائلا" لا يعذب بالنار الا ربها"..، ثم استل مسدسه من خصره واطلق طلقة واحدة في رأس ابي كفاح فخر

صريعا لتوه..

الصيف الساخن

وفي صيف تلك السنة شن العدو الغاشم عدوانا هائلا على الوطن متذرعا باستعمال الفدائيين لاراضينا منطلقا

لعملياتهم ضده .وبدت الحرب الاهلية بمثابة لعبة اطفال قرب هذا العدوان نظرا لحجم الدمار الذي حل

بالوطن والمجازر التي قطعت اوصاله فقد القت الطائرات بآلاف الاطنان من القنابل العملاقة التي تدك

البنايات دكا من اساساتها .ولاقى اهل الجنوب النصيب الاكبر من العدوان ومع ذلك فقد صمدوا صمودا

اسطوريا امام آلة حرب تصب عليهم الحديد و النار بلا كلل او
ملل .ولم تمر الا بضعة شهور حتى نظم اهل
الجنوب مقاومة باسلة للعدوان تدرجت عملياتها في البدء من
عمليات خجولة فردية لتصبح حرب عصابات
منظمة انهكت العدو .وكان الراغبين في خوض المعارك ضد العدو
الاجنبي يخضعون لدورات تدريبية تمهد
لنزولهم الى ميدان القتال .وبالطبع لم يكن اسامة محتاجا لمثل هذه
الدورات بل تطوع في المساعدة للتدريب
على القنص وهو ميدان اختصاصه .الا ان الخضوع لدورات دينية
كان الزاميا فبدون الاعداد النفسي والديني
للمقاتلين كانت قيادة المقاومة تخشى من اختراق صفوفها من قبل
متطوعين يعملون لمصالح شخصية او
مصلحة العدو الاجنبي .وتفاجىء اسامة ان يكون الشيخ قاسم هو
المسؤول عن هذه الدورات فقال له :قاسم؟؟
ماذا تفعل هنا؟؟ ظننتك من انصار الحل السلمي.
فتقدم قاسم بهدوء ووقار وقال :يعني ان لم اشترك معكم في حروبكم
العبثية ..اكون مسالما؟؟ انا اقسمت الا
اوجه بندقيتي الا الى صدر العدو الحقيقي ..واقسمت الا اقاتل الا
في سبيل الله..
اسامة :لكن الا تسمي حربنا ضد الجبهة الوطنية جهادا؟؟ الا يعد
تخليص الناس من الطواغيت مثل ابي كفاح

وشربل وامثالهما جهادا ؟؟

تجاهل قاسم السؤال واجاب :جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

فردد اسامة في نفسه" لتكون كلمة الله هي العليا؟؟ "ثم رفع صوته وقال مستفهما" اتراني لم اكن احارب بهذه النية؟؟"

قاسم :دعني اسألك : متى انضممت الى التنظيم؟

اسامة :عندما اقتنعت بأنه علي الدفاع عن مدينتي..

قاسم ببرودة :خطأ ..عندما قتلت والدتك ..اردت الانتقام ممن قتلها..

فنكس اسامة رأسه ولم يجب..

تابع قاسم :متى انقلبت على التنظيم؟؟

اسامة :حينما كشفت زيف مبادئهم..

قاسم :خطأ ..لقد ثابرت معم تدافع عنهم وتضرب بسيفهم رغم كل شواذاتهم ولم تنقلب عليهم الا حينما اكتشفت انهم هم من قتلوا والدتك..

وفتح اسامة فمه يريد الاجابة لكنه لم يجد ما يجيب به فنكس رأسه مجددا...

وتابع قاسم استجوابه كالرشاش :متى بدات الانتقام من ابي كفاح
ورجاله الواحد تلو الآخر؟ لم انشات
مجموعتك السرية :خفافيش الليل؟؟ قل لي لما سكت؟
اسامة بانفعال :كي اخلص الناس من شرورهم ..كي ارفع الظلم عن
الناس ...كي ...كي..
قاسم بهدوء :اكمل ..كي
فاجهش اسامة في البكاء وقال :كي انتقم لشرف اختي ...ثم تمالك
اسامة نفسه وقال" لكن اليس من يدافع عن
نفسه وماله وعرضه شهيدا؟"
قاسم :نعم اذا اخلص نيته له تعالى ..لكن انت كنت مدفوعا بشهوة
الحقد والانتقام ....الا تذكر يوم كنا صغارا
وقص علينا الشيخ" مسعود "موقف علي ابن ابي طالب رضي الله
عنه عندما جاء ليقتل ذلك المشرك فبصق
المشرك عليه
اسامة :معم اذكر لقد أحجم رضي الله عن قتله وقال كنت اريد قتله
اول الامر لنصرة دين الله فلما بصق علي
خفت ان اقتله انتصارا لنفسي .نعم صدقت ..كل قتالي كان حمية
وثارا وانتقاما ..ثم لمع في عينيه بريق
الامل وقال " لعلني اكفر عن ذنبي الآن اذ جئت للجهاد"..
قاسم بحزم :وهل انت ضامن حقا انك جئت لاجل الجهاد
اسامة :ماذا تقصد؟؟ اتشكك في نيتي حتى في هذه النقطة ؟؟

قاسم :ارجع ياأ سامة ..ارجع ..فانك لم تأت للجهاد..
اسامة بغضب :ماذا تظن نفسك؟ تقرأ افكار الناس ولم جئت اذن برأيك؟؟
قاسم بحزم :جئت لنفس السبب الذي دعاك الى طردي من شلتك منذ عشر سنين ..ارجع يا سامة ارجع
وصف نيتك ثم تعال الى هنا عندما ترسخ الهدف من مجيئك ..ان الله لا يقبل الا ما كان خالصا لوجهه.
اعذرني ان كنت قاسيا معك ..لكنك كنت بحاجة لصدمة كي تستيقظ فارجوك كن مثل سحرة فرعون لا كقوم ابراهيم عليه السلام.
فصمت اسامة لفترة ثم قال بصوت متهدج" :انت تكرهني يا قاسم .. لم تنس لي ما فعلته يوما بك"
فابتسم قاسم ابتسامة واسعة وقال" وهل يكره احد ابن حماه المستقبلي؟؟ اسمع يا اسامة انا اطلب منك رسميا يد اختك ليلى" ..
اسامة :ولكن انت تعرف...
قاسم :وما ذنبها هي؟؟ كانت ضحية يا اسامة ..ليلى اشرف من الشرف نفسه..
فضم اسامة قاسم اليه ضما شديدا وشرع بالنحيب كالطفل اذا ادرك مدى شهامة قاسم وايمانه..

فربت قاسم على كتف اسامة بحنان وقال" : اسامة؟؟ الرجل الشجاع
الذي لا يهاب الموت؟؟ انت تبكي؟؟"
اسامة :ارجوك لا تنادني بهذا الاسم بعد الآن فانا لا استحقه ..انا
مجرد حشرة ..ارملة سوداء ..آلة قتل
متحركة..
فتمتم قاسم وقال" **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعًا**
..."

الاسد والثعلب

وشيئا فشيئا ازدادت المقاومة ضراوة فبدأ العدو يغرق في مستنقع لم
يحسب له حسابا ..أي نعم نجح مرحليا
في طرد الفدائيين ولكنه غرق في حرب كر وفر مع المقاومة
الوطنية الباسلة .في البدء لم يعترف العدو
بالمقاومة و اعتبرها مجرد عمليات بهلوانية لن تلبث ان تتحسر امام
عظمة جيشه الجبار– الجيش الذي لا
يقهر –ولكن بعد عدد من العمليات النوعية الناجحة بدأت قيادة
اركان العدو تحسب للمقاومة حسابا واجبرت
ان تدخل في مفاوضات سرية اخفتها عن شعبها مع المقاومة لثنيها
عن مهاجمتها .وبعد وساطات سرية عقدت
اول جلسة مفاوضات بين الطرفين في قرية حدودية تقع على خط
النار .وانتدبت قيادة المقاومة الشيخ قاسم

للتفاوض بأسمها لما لمست فيه من حنكة ودراية فيما ظل اسم مندوب العدو سريا حتى آخر لحظة.

جلس الشيخ قاسم على الطاولة المستديرة يحيط به عدد من مستشاري المقاومة العسكريين وانتظروا خمسة دقائق حتى وصل المفاوض من طرف العدو .وكم كانت دهشة الشيخ قاسم شديدة لرؤية المستر سميث ممثلا لطرف العدو .وطبيعي ان يتفاجأ المستر سميث ايضا بالمفاوض الذي يقف امامه ولكنه ما لبث ان تفاءل خيرا حينما تذكر التأثير الهائل الذي كان يملكه على قاسم فامسك يده وهزها بحرارة قائلا" قاسم ..تلميذي المفضل ..هذا سيسهل المهمة علينا كثيرا"..

لكن قاسم سحب يده بسرعة من يد استاذه وقال" لا اعتقد ..لقد تغيرت الايام مستر سميث ..ولم اعد هذا الشخص الذي كنت تظنه"

لكن المستر سميث بدا واثقا اكثر من اللزوم وقال " طبقا لنظريات فرويد الانسان لا يتغير مئة وثمانين درجة ..لا بد وانك ما زلت تحمل مبادئي في اللاوعي دون ان تشعر"..

"مستر سميث قد يكون ما تقوله صحيحا عند مرضى فرويد من امثالكم ولكن الاسلام يغير الناس مئة وثمانين

درجة ..انه يحييهم بعد مماتهم ..انه يخرجهم من الظلمات الى النور".

فتبسم مستر سميث بخبث وقال" والاسلام هل يأمرك بان تقتل نفسك؟؟ الم يقل" و**لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**" الم يقل" **ولا تقتلوا انفسكم**"..

تابع قاسم بنفس الوتيرة الهادئة ودون ان يرف له جفن :القاء النفس بالتهلكة يكون بالتخلف عن الجهاد "..**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون**"

فبدأت آثار الغضب تبدو على المستر سميث و لكنه كتم غيظه وقال بهدوء" اسمع يا قاسم ..يا تلميذي العزيز ..انا لست بحاجة للمواعظ ...مشكلتنا ليست معكم ..انها مع الفدائيين فقط فارجوكم تنحوا جانبا ..انت مثلا ..ما الذي جلبك من الشمال لتقاتل مع اهل الجنوب ومع الفدائيين؟؟ "هل هاجمناكم في الشمال؟؟"

قاسم" :**إنما المؤمنون إخوة** " ونحن لن نترك اخوتنا في الدين والوطن في مأزق دون ان نساعدهم ..ومع كل ارض عربية او اسلامية تقع تحت نير الاحتلال يصبح لزاما على الامة جمعاء ان تدافع عنها..

وانتقل مستر سميث من اسلوب الحوار الهادىء الى الاستهزاء فقال ساخرا" :امة؟؟ اين امة الاسلام هذه؟؟ لقد

باعكم اخوتكم في البلاد المجاورة الف مرة ..من تحرك من اخوتكم
لنصرتكم؟؟ لقد كانوا يتابعون مباريات
كرة القدم ونحن ندك منشآتكم وجسوركم ..زعماؤهم يتصلون بنا
ويترجوننا ان نقيم العلاقات معهم ..اية امة
هذه؟؟ اما زلت تعيش احلام الخلافة والمهدي المنتظر؟؟ لقد سقطت
الخلافة منذ سبعين سنة ..استيقظ يا قاسم
استيقظ ..عصركم ولى..
اجاب قاسم ببرودته المعهودة :لم اكن يوما بهذا الوعي يا سيدي
حتى تطلب مني ان استيقظ" ..**وتلك الايام**
نداولها بين الناس .."بايدينا وبايدي اولادنا ان شاء الله سنعيد
الخلافة الراشدة ونحن لسنا مستعجلين..
فالانسان منا يحاسب على قدر طاقته..
فعض المستر سميث على شفتيه من الغيظ وقال" انت غير منطقي
على الاطلاق انت تعيش في الاوهام..
اسمع لم اعد استطيع ان احاورك .. هل من احد آخر اكثر عقلانية
اتفاوض معه "..ثم نظر في الفريق
المرافق لقاسم فوجدهم يحملون جميعا نفس النظرة وكأنهم
مستنسخين عنه فعاد الى هدوءه وقال" اسمعني يا
قاسم ..نحن دولة قوية جدا والعين لا تقاوم المخرز ..فكفى لعبا
بالنار .. نحن لم نستخدم كل قوتنا معكم
بعد"..

"**فلله العزة جميعا** .."لن تكونوا اقوى من الله " ..**إن ينصركم الله فلا غالب لكم** .."قال قاسم..

الله؟ اين الله؟؟ قال سميث" لم لم يساعدكم حينما دكت طائراتنا مدنكم؟؟"

ان الابتلاء من سنن الله في المؤمنين قال قاسم بيقين تام وتابع "يقول الله تعالى" **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** " ولا نصر الا بعد التمحيص وقد ابتلي من هو خير منا باشد من ذلك وصبروا ..افلا نصبر نحن؟؟.

سميث :اسمع يا قاسم للمرة الالف اقولها :نحن لسنا في موقع ضعف ابدا وانت تعرف هذا تماما ..نحن نملك من القوة التدميرية ما نستطيع ان ندك به البلد على رؤوسكم ولكننا لا نريد ان نظهر بمنظر الهمجي امام الرأي العام الغربي ..نريد ان نظهر بمظهر الدولة الدمقراطية العادلة ..لكن ان ثابرتم على استهدافنا قسما عظما لنحول هذه الارض الى هيروشيما ثانية..

مستر سميث .. لا تهدد ارجوك ..نحن جنتنا في صدورنا فكيف تسلبوها منا؟؟ نحرص على الاستشهاد كما تحرصون على الحياة..

وفي النهاية لن تلحقوا بنا الا احد الحسنيين النصر او الشهادة ..فلا تتعب نفسك بالتهديد..

فتنهد المستر سميث تنهيدة اشعرت من حوله بأن صبره بدأ ينفذ
ولكنه كمحاور خبير لم يفقد الامل بعد فقال
"انظر يا قاسم ..نحن لن نتفق ما دمنا نتكلم في العموميات ..فكل
منا ينطلق من عقيدة مختلفة ..فليعرض كل
طرف منا طلباته ولنرى ان كان يمكننا ان نتفق على التفاصيل ..ما
هي طلباتكم؟؟"
"بكل بساطة ان تنسحبوا من ارضنا"..
"عال ها قد بدانا نتفق ..نحن لا مطامع لنا في ارضكم ..ومستعدين
ان ننسحب بمجرد ان نعقد اتفاقية سلام
معكم" ..
فهز قاسم رأسه رافضا الفكرة وقال" نريد انسحابا غير مشروط ..كما
دخلتم ارضنا بدون استئذان عليكم ان
تحملوا امتعتكم وترحلوا"..
فاستفز هذا الكلام مستر سميث وطرق الطاولة بقسوة بقبضة يده
قائلا" ها قد عدنا الى منطق التكبر ..اتظن
نفسك في موضع قوة حتى تفرض شروطك؟؟"
لم يجب قاسم باي جواب ولم تبد عليه آثار أي انفعال ..فتمالك
سميث اعصابه من جديد وضرب آخر سهم في
جعبته فقال" صدقني يا قاسم ..نحن شعب مسالم ..نريد ان نعيش
بسلام وان ينعم اطفالنا بالامن ..نحن لسنا

سرطان الشرق الوسط كما تظنون ولا مطامع لنا في ارضكم ..
على العكس نحن نريد ان نساعدكم على بناء
دولتكم ونحيدكم عن هذا الصراع في المنطقة فانتم لا ناقة لكم ولا
جمل فيه، نحن نريد ان تكونوا متحضرين
مثلنا وتنبذوا الارهاب"
"الارهاب هو ما تمارسونه انتم ..انتم الذين طردتم اخوتنا من ديارهم
وشردتموهم في ارجاء المعمورة"
"سيد قاسم، الن ننتهي من هذه القصة؟؟ "قال سميث متأففا" لقد مر
خمسون عاما عليها ..اما آن لكم ان
تنسوها؟؟ لقد ولد ابناؤنا على هذه الارض؟؟ هل تريدون منا ان
نرميهم في البحر؟؟ "يا اخي لا افهم ..انتم
العرب تملكون من الاراضي الكثير ..اضاقت اعينكم بهذه الارض
الصغيرة التي طالما اعتبرناها موطن
اجدادنا وارضنا الموعودة؟؟"
"من جاء بكم الى هذه الارض يجد حلا لكم ولاولادكم ..لا يمكن ان
نقبل وجودكم بين ظهرانينا ..نحن لم
نرث هذه الارض عن ابائنا حتى نبيعها لكم ...بل استعرناها من
اولادنا ..ولن نخون الامانة ونتخلى عنها"..
فضحك سميث وقال" كنا في قضية ارضكم فاصبحنا في قضية
الارض التي نعيش فيها ..انا لا افهمكم حقا..
هل تظنون انكم ستطردونا منها بصواريخكم البدائية الصنع؟؟"

"قد لا نستطيع تحريرها ولكن ابدا لن يسجل في التاريخ اننا بعناها لكم او ارتضينا ان تسكنوا فيها ..يكفينا ان
تبقى جذوة المقاومة والرفض حية في النفوس"..
فهز سميث رأسه بأسى وقال" انا لا استطيع ان افهمكم لا منطق ابدا ..عشت معكم عشرين عاما ولم استطع
ان افهم عقليتكم ..لماذا اتعب نفسي؟؟ كنت احاول ان انقذ ما يمكن انقاذه وفاء للعشرة ولكن واضح ان لا
حلول وسطى عندكم"..
ولاول مرة في هذه الجلسة يضحك قاسم ويقول" وفاء للعشرة؟؟ مستر سميث لا تنس اني تلميذك السابق
واعرف مبادئك ..واعرف ان لا وفاء عندك الا لمصالحك الشخصية ...اسمع جيدا مستر سميث ..كلامي كله
منطق ولكنك لا تستطيع رؤيته ..اتعرف لماذا؟؟ لانك تفكر في اطار هذه الدنيا فقط ..انت لا ترى الصورة
كاملة كما نراها نحن المؤمنون ..انت لا ترى الا الظلال وحتى هذه الظلال فانت تراها مشوهة"..
وفتح مستر سميث فمه ليجيب لكنه لم يجد كلاما ليقوله .. فجمع اوراقه عن طاولة المفاوضات وقام بغضب
قائلا" هي الحرب اذن بيننا وبينكم "..وانصرف ..ولبث قاسم خمس دقائق في مكانه متأملا ثم قال هو الآخر
"هي الحرب"..

من حضن الى حضن

وحانت لحظة الفراق حيث لم تنفع توسلات عبير في ثني زوجها
حسام عن الانضمام الى المقاومة لتحرير
الجنوب من العدو الغاصب.
فلبست في وداعه ازهى ثيابها واسدلت شعرها الاسود الفاحم على
كتفيها وقالت والعبرات تخنقها :اتتركني
ولم يمض على زفافنا الا بضعة اشهر؟؟ هل فراقي سهل عليك
هكذا؟؟ انت لا تحبني اذن؟؟
حسام بحزن :كيف تقولين هذا؟؟ انت ملهمتي ونور عيوني
وروحي ..انت الدم الذي يجري في عروقي فاذا
غبت عني فكيف اعيش؟
عبير بدلال :حقا؟؟
حسام وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حانية :انا لا اعرف كيف
استطعت ان تسحريني هكذا؟؟ الا تعلمين
ان السحر حرام في ديننا؟
هزت عبير راسها موافقة فيما نظر حسام الى الافق وقال : اتذكر
كل لقاءاتنا مشهدا مشهدا وكأنها حصلت
البارحة ..كل حواراتنا كلمة كلمة كل تعبير من تعابير وجهك ..كل
بسمة ..انت قصيدتي التي ساقضي كل
عمري اكتب فيها يا عبير..
عبير :اذن لم تتخلى عني؟

حسام :والله يا عبير ان حضنك الدافى اجمل عندي من الدنيا وما فيها ..ولكن الواجب يناديني ..كيف انعم بمحبوبتي واخواني وخلاني يبذلون دماءهم وأزواجهم للدفاع عن الوطن والدين؟؟ افترضين ان اكون من المخلفين؟؟

فاستجمعت عبير قواها وقالت :لا .. لن ارضى لك هذا ..فانا ما احببتك الا لرجولتك وشجاعتك وتدينك..

فلن اقف حجر عثرة امامك بل لن تجد مني الا الدعم والدعاء .. عسى الله ان يردك الي سالما معافى ..اسمع يا حسام ..انا مقتنعة بما تقول ..ان عدونا سرطان ولا ينفع التعايش معه او خطط السلام فهذه كلها ستزيد من قوته وسيستشري حتى ينهك جسد الامة ..قالت هذا وهي تتذكر معاناتها مع والدها ثم اردفت :لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين.

سر حسام لسماع زوجته وقد لان موقفها فأمسك خصلا من شعرها الاسود الحريري وداعبه وهو يقول لها مبتسما :اتعرفين اني حلمت اياما وليالي بك ولطالما تمنيت ان اعرف لون شعرك؟؟

عبير مندهشة :لكنك انكرت انك كنت تسأل هذا السؤال في فترة الخطوبة ..و ادعيت انهم اصدقاؤك اما انت فكنت ملتزما.

حسام :وانالم اكذب .. انا لم أسأل هذا السؤال امام احد بل في قلبي
فقط ..وهل تظنين ان الملتزم بلا قلب..
بلا وجدان ..بلا مشاعر؟؟ نحن نشعر بما يشعر به بقية الناس ..
لكننا نضبط مشاعرنا ان تفيض وتغرقنا..
نحب بصمت ..ونتعذب بصمت ..نرسم فوق شفاهنا ابتسامات
نحاول بها اخفاء البراكين التي تشتعل في
صدورنا ..نبكي بلا دموع ..نتألم بلا انين ..نعاند الف شيطان
وعفريت ومارد متمرد حتى نستطيع ان نحول
اعيننا عمن نحب ..تقولين اغض بصري ؟؟ نعم لكن اول نظرة
مني لك كانت كافية لتطبع صورتك في ذهني
وتنشب به اظافرها الى الابد.
عبير بدلال :لكني لا اعترف بالحب من اول نظرة..
حسام :ومن قال انها اول نظرة؟؟ لقد التقينا من قبل يا عبير ..
التقينا مرارا في عالم الارواح وتآلفنا ..ثم
اردف بابتسامة محببة :لكنك نسيتني وانا لم انسك..
ضمت عبير زوجها اليها وغرقت في حضنه وقالت :هذا محتمل ..
الحرب انستني كل شيء ..من اين لك هذه
الشجاعة يا حسام؟؟ الا تخاف من الحرب مثلي؟؟
حسام :عبير انت ولدت خارج هذه البلاد ونعمت بالامن ..نحن
فتحنا اعيننا على الحرب ..الحرب كانت الام

الحنون التي احتضنتنا فكيف نخاف منها؟؟ ازيز رصاصها وقذائفها كان الاغنية اللطيفة التي تهدهد مهدنا كل
ليلة ..صواريخها__________ خبزنا اليومي ..كنا نفرح في ايام الاشتباكات كما كنتم تفرحون بالاعياد اذ كنا نجد فيها
فرصة للغياب عن المدرسة ..كنتم تجمعون العملات والطوابع ونحن هوايتنا كانت جمع الشظايا وبقايا
الصورايخ .الحرب احتضنتنا يا عبير ..الحرب ربتنا ..وهل رأيت احد يخاف من حضن امه؟؟

وتذكرت عبير حصنها الحصين فاندست اكثر في حضن زوجها وقالت" اشتقت اليه جدا"..

ففهم حسام انها تتكلم عن والدها فقال" حبيبتي ..لا تحزني انه ينتظرنا في الجنة ان شاء الله" ..

"الا تشتاق انت لوالدك؟؟ "سألت عبير برفق وهي تنظر في عيني زوجها.

فضمها بحنان واجابها اجابة اثارت دهشتها" لا "وقبل ان تسأل تابع قائلا" اتعرفين لم لا اشتاق اليه؟ لأنه دائما
معي ..لأنه في داخلي ..لم تكن علاقة والدي بي علاقة صداقة وحنان مثل علاقة والدك معك ..لكها كانت
علاقة قدوة وتوجيه ..تأثرت فيه لدرجة ان المقربين منه يظنوني مثله ..في الشكل ..في التصرفات ..في حبه

للكتابة ..في محبته للناس ..في تواضعه ..لم يكن والدي يتكلم معي
كثيرا او ينصحني ..ولكنه كان يأخذني
معه في زياراته الى الاسرة والاصدقاء والسوق فكنت اراقب تصرفاته
والمس مدى اعجاب الناس به .. كان
محبوبا من الكل لدرجة انه ان مشي في السوق استغرق نصف
ساعة لقطع مسافة مئة متر من كثرة ترحيب
الناس به ولهفتهم عليه ..عرف والدي انه لن يكون معي طوال
الوقت فلم يحاول ان يحل مشاكلي عني بل
علمني كيف أحلها" ..
عبير :كان يتحاور معك؟
حسام :ليس بالضرورة .. كان يعلمني بتصرفاته ..اسمعي يا عبير
هناك كثير من الناس يقولون ما لا
يفعلون ..لم يكن والدي كثير الكلام ولم يكن من النوع الذي يعرف
ان يعبر عن مشاعره كما كانت تردد
والدتي امامه ..ولكنه كان يعبر عن حبه للناس بالافعال لا
بالاقوال ..كان يلتزم بكلامه ولا يتراجع عنه، كان
يحن على الفقير وعلى الضعيف..
وماذا علمك ايضا؟ قالت عبير وهي مشدوهة لما تسمع
حسام :علمني ان سعادة الانسان بيده وليست محكومة بظروفه ..
علمني ان اكون مع الحق ولا ابالي ولو كان

العالم كله ضدي .كان يردد علي ماذا ينفعك ان ربحت الناس
وخسرت نفسك؟ ماذا يستطيع ان يسلبك الناس
ان كانت جنتك في صدرك؟؟
عبير :لهذا اراك تجازف بحياتك؟؟ وتصر ان تمضي مع المقاومة
مع معرفتك بالخطر الذي يترصدك؟؟
حسام :يا عبير .. لو ان الانس والجن اجتمعوا على ان يضروني
بشيء فلن يضروني الا بما كتبه الله علي..
"ليتني املك جرأتك ويقينك "قالت عبير وغاصت في صدر زوجها
ثم تمتمت" لكني اخاف "..فربت على رأسها
وقبل جبينها قائلا" ومن منا لا يخاف؟؟ الشجاعة يا عبير ليست
بانعدام الحوف ..ولكنها بالتغلب عليه"..
"صدقت "قالت عبير" فليس هناك ما يستحق ان نخاف منه الا رب
العالمين ..اذهب الى واجبك يا زوجي
العزيز فقد وكلت امرك وامري الى الله فلن يضيعنا"..

اعز ما نملك

ومرت ايام عصيبة على الوطن وعلي ..توفي والدي بعد معاناة
طويلة مع المرض واضطررت ان اقيم
وحدي انا واخي الصغير رائد لمدة من الزمن في منزلنا الا ان
خالتي" سهيلة "اصرت علي ان امضي العطلة
الصيفية في العاصمة معها ومع ليلى فوافقت بدون تردد خاصة
واني اشتقت لرفيقة عمري كثيرا ..في الحقيقة

لم المس أي تحسن كبير على شخصية ليلى كما كنت اتوقع اذ لم يساعدها انتقالها بعيدا عن مسرح الاعتداء
الذي حصل لها في تجاوز معاناتها من آثار ما تعرضت له او في تخطي كرهها لجنس الرجال خاصة وان
خالتي العانس سهيلة لم تكن تكنّ لهذا الجنس تقديرا افضل حتى اني لقبتهما لقبا كان يضحكان منه" اشك لي "و
"اشكو لك ."لذا لم اتفاءل خيرا حين كلمني اسامة بموضوع قاسم بل قلت له : انس الموضوع ..اختك لا يمكن
ان تتزوج ابدا ..ما حصل لها لم يكن بالسهل واي شخص سيفتح معها هذا الموضوع مصيره الذبح ..وانا لن
استغني عن حياتي.
اجاب اسامة بابتسامة وقال لي" انت لا تعرفين الشيخ قاسم ..ان كان نجح في ترويض الاسد الذي امامك فلن
تعجزه انثى"
"ليلى لم تعد انثى "..قلت لاسامة" ليلى اصبحت شبح انسان يعيش في هواجس الماضي بلا اسم او جنس
اوعنوان ..ان مجرد طرح الموضوع امامها مستحيل".
فاجاب اسامة بتؤدة :ليلى لن تتعرف على قاسم كعريس...
كانت خطة اسامة ان تتلقى ليلى معي ومع خالتي دروسا دينية ومحاضرات على يد قاسم كما درجت اسرنا

على ذلك في مدينتي لكن ليلى رفضت وقالت ان لها في الكتب
مندوحة عن هذا الامر .وبالفعل كانت ليلى في
الدروس الاولى تعتزل مجلسنا وتغلق الباب على نفسها في غرفتها .
لكننا تقصدنا ان نجعلها تسمع كلامه الذي
كان يجمع فيه بين الاسلوب الجذاب والمضمون المميز . ولعل اشد
ما جذب ليلى اليه هو صوته الرائع في
تجويد القرآن وخشوعه العميق في الدعاء لدرجة ان لحيته كانت
تبتل من الدموع .وشيئا فشيئا بدأت ليلى
تتشوق لمعرفة صاحب هذا الصوت الجميل والاسلوب المؤثر ..
وراحت ترسم في خيالها عدة صور له ..لم
تكن تستطيع ان ترسمه بصورة رجل فقد كرهت الرجال كلهم فرسمته
بصورة كائن سماوي نوراني لا جنس
له ولا لون .واحبت ليلى قاسم ..احبت صوته وخشوعه وصورته
النورانية النى رسمتها في خيالها ..وتاقت
نفسها الى رؤيته والاقتراب منه ..لذا لم نتفاجأ يوما حينما دخلت
علينا في احد دروسه والقت السلام بحياء
شديد متوقعة منه ان يتفاجأ بهذا الضيف الغريب ..لكن قاسم تعامل
بتلقائية مطلقة مع دخولها وكأنه متوقع كي
لا تشك بوجود أي بادرة اهتمام منه واكتفى برد السلام بتهذيب ثم
تابع درسه وسط دهشة ليلى لهذه
اللامبالاة..

في البدء لم يجرؤ قاسم ان ينظر الى ليلى ولا هي نظرت اليه ..
ولكن بعد مرور خمس دقائق لم يستطع ان
يغالب شوقه لرؤية الفتاة ذات الضفيرتين الذهبيتين التي عرفها في
صغره فرفع عينيه ونظر اليها ليجدها
اجمل مما كانت فقد ازادد جمالها نضجا وبهاء واضفى الحجاب
عليها بهاء ونورا ولم يفته بالطبع ان يلاحظ
مسحة الحزن التي تعكر صفو هذا الجمال الهادىء .وبدورها رفعت
ليلى نظرها لتنظر الى هذا المخلوق
النوراني فتلاقت نظراتهما لوهلة وحملت هذه الثواني القليلة مئات
الرسائل والمعاني المختزنة في القلوب .الا
ان ليلى كانت البادئة بغض بصرها بقوة وعنف وكأنها عادت لترى
فيه الرجل وليس الكائن السماوي الذي
رسمته في خيالها ..فاستأذنت بالانصراف الا ان الشيخ قاسم ناداها
باسمها" اخت ليلى ..لحظة من فضلك"..
فتعجبت ليلى وسألته" اتعرفني؟؟"
قاسم :كيف لا؟ وانا صديق شقيقك اسامة..
فقالت بنبرة قاسية" لا شقيق لي اسمه اسامة ..ماذا تريد مني يا
فضيلة الشيخ؟"
قاسم :لا يجوز ان نقطع الرحم يا اخت ليلى فالرحم معلقة بعرش
الرحمن ..قاسم شقيقك والدم لا يتحول الى
ماء...

"مع قاسم الماء يتحول الى دم "..قالت ليلى هذا واجهشت بالبكاء حينما تذكرت مأساتها التي لن تفارقها كل
حياتها وكيف يتحول الماء الذي تتطهر به الى دماء غزيرة في كوابيسها التي لا ترحمها لا في اليقظة ولا في
المنام ..وطبعا لم يفقه اسامة ما تعنيه ليلى فتابع وقال" :اسامة تغير الآن ..انه معنا ..مع المقاومة"
ليلى :انا لا اؤمن بجدوى المقاومة ..انتم تتسببون بمآسي كثيرة .. المئات من الاطفال يموتون بسببكم؟؟
فعلق قاسم متعجبا :نحن لا نقتل الا الجنود..
ليلى :ولكن العدو يرد عليكم بأن يقتل الاطفال..
فضرب قاسم على الوتر الحساس وقال :لم اتصور انك تفكرين هكذا يا اخت ليلى ..تلومين الضحية بدل ان
تلومي الجلاد..
فانفجرت ليلى بالبكاء مجددا حينما تذكرت مأساتها وقالت :كلهم يلومون الضحية ..كل الناس تلوم الضحية..
فلم تعاتبني اذن ان فعلت مثلهم؟؟
قاسم :لا تعممي احكامك على الناس اخت ليلى .الناس فيهم الصالح وفيه الطالح ..والمؤمن لا يظلم اخيه
المؤمن بجريرة جرم ارتكب بحقه كرها عنه.
فتمالكت ليلى اعصابها وقالت :اسمع يا شيخ قاسم ..انا ضد الحرب ..وضد كل من يشارك بها.

قاسم :كلنا ضد الحرب "..**كتب عليكم القتال وهو كره لكم** "..لكن ماذا نفعل ان فرضت علينا ؟

تابعت ليلى وكأنها لا تسمع ما يقول :الحرب كلها مآسي وشجون .. اطفال تمزقها الصواريخ ..شيوخ تدفن

تحت الانقاض ..نساء تنتهك اعراضهن...ثم تمتمت بصوت خافت وتابعت" نساء يفقدن اعز ما يملكن"..

"ان اعز ما يملك المؤمن هو هذا "قال الشيخ قاسم وهو يشير الى قلبه" ..انه الايمان ..الرصيد الذي لا

ينضب .ومعه تهون كل المآسي ولأجله تحتمل كل الخطوب" ..

وتتابع الحوار بدفق وانسيابية فكان بداية التحول في نظرة ليلى الى الرجال ..واضطررت للاعتراف بعد

اسابيع لاسامة انه ربح الرهان ..لقد حصل آخر ما كنت اتوقعه .. تزوجت ليلى من شيخ المقاومين :قاسم..

اللقاء على ارض المعركة

في البدء شعر اسامة بالملل لأنه لم يكلف باي مهمة طيلة فترة وجوده في المعسكر باستثناء التدريب .وتاقت

نفسه الى رائحة البارود الممتزج بالدم وعبق رائحة الموت .ولم تخيب القيادة الموحدة للمقاومة امل اسامة

فكلف بترؤس وحدة من ثلاث اشخاص لتنفيذ عملية كبيرة بقيت ضمن طي الكتمان حتى اللحظة الاخيرة:

تفجير مقر القائد العسكري للجبهة الشمالية في جيش العدو الواقع
في قرية المروج.
وجاءت لحظة الحسم وحدد اجتماع الثلاثة الاعضاء في التاسعة
ليلا من يوم الاربعاء وتولى الشيخ قاسم ادارة
جلسة العمليات وتعريف اعضاء الخلية الى بعضهم البعض .دخل
اسامة الى غرفة الاركان ليجد قاسم منكبا
على طاولة الاجتماعات يحدق في خريطة العمليات .ولاحظ قاسم
دخول اسامة فاشار اليه ان يتقدم وقال
"اعتقد بانك تبلغت قرار القيادة بتوليتك امير ا على الخلية"
"نعم "قال اسامة" وتعجبت جدا ان اكلف بهذه المسؤولية في اول
مهمة لدي"
فربت قاسم على كتف اسامة وقال" لقد زكيتك عند القيادة يا اسامة
فكن على قدر المسؤولية ولا تخيب ظني
بك"
"وهل انت مقتنع بأني اهل لهذه المسؤولية؟"
"انا مقتنع بذلك تماما يا ابن حماي ..القيادة تجري في دمك ..انا
خبرتك منذ كنت صغيرا اثناء قيادتك للشلة"..
فقال اسامة باسف" لكني طردتك منها واهنتك وشوهت سمعتك"..
فابتسم قاسم وتنهد قائلا" اسمع مني هذه النصيحة يا قاسم وطبقها
ارجوك .اخلاق الجهاد تدفعنا الى التعالي
فوق الاعتبارات الشخصية"

فهز اسامة راسه موافقا وقال" انا اتقبل هذه النصيحة برحابة صدر ..ما المطلوب مني؟"

قاسم" :ستترأس قيادة المجموعة وتحمي ظهورها من الخلف .. وبيدك سيكون قرار التفجير وتوقيت الانسحاب

وتأمين التغطية، سنجهزك بمنظار ليلي، قاذفة ار بي جي مجهزة بثلاث حشوات ..ثلاث قنابل يدوية

وطبعا."...

قاطع اسامة كلام قاسم وربت على ظهر بندقيته وقال" وطبعا بندقيتي القناصة ..انه لشرف كبير ان لي ان

تولوني هذه المسؤولية ..ثم نظر حوله وكانه يستفسر عن هوية الشركاء".

واستشعر قاسم فضول اسامة فتابع كلامه وهو يشير الى تصميم المبنى على الخريطة قائلا :نحن نحتاج

كذلك لخبير ماهر يعرف كيف يزرع اقل عدد من العبوات الناسفة كي ينهار المبنى .. لا يوجد لدينا متسع

من الوقت لتزنير المبنى بكامله"..

فاكد اسامة على الفكرة وقال" :معكم حق مئة بالمئة"..

تابع قاسم دون ان يزيح وجهه عن خريطة العمليات :لذا اخترنا حسام فهو مهندس بناء وخبير في هذه

الامور.

فبهت اسامة للخيار غير المتوقع وقال "لكن حسام ليس عنده خبرة في الحرب"..

اجاب قاسم بثقة" لقد تلقى تدريبا كافيا في معسكر التدريب .. تفوقًا ملحوظًا"

اسامة : لكن انت تعرف ان النظريات شيء والواقع شيء آخر .. لماذا لا نبقيه هنا ؟؟ فليشرح لي الاماكن

المطلوبة على الخريطة وانا اضعها واحدة واحدة .هو الوحيد المتعلم بيننا فلم نخاطر به؟؟

فسمع اسامة صوتا خلفه يقول" لا يا اسامة ..انا جئت إلى هنا لأقاتل لا لأنظر ..دماء الآخرين ليست اغلى من

دمي ..ويوم القيامة لا يختلف حساب المهندس عن حساب أي انسان آخر"..

"حسام انت هنا؟؟ "قال اسامة ثم التفت خلفه ليجد حسام فاتحا يديه لاستقباله فتعانق الطرفان بحرارة ونظر

كلاهما في عيني الاخر ثم تعانقا مجددا.

وإن كان وجود حسام ضمن الخلية مفاجأة لاسامة فان الشخص الثالث كان مفاجأة لحسام نفسه ..عرف قاسم

عنه قبل دخوله" هذا شاب جاء من بلاد الاغتراب ليشارك اخوته المسلمين في الجهاد ..شاب اقتنع ان

المسلمون امة واحدة وان المسلم اخو المسلم ..لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود"

و في هذه اللحظة دخل الشخص الثالث دون ان يتبين الحضور ملامحه في الظلام خاصة مع لونه الداكن فقال
بعربية مكسرة" ولا لكهربائي بسيط على مهندس مشهور الا بالتقوى" "دنجوا ..هذا انت؟؟"
"بلال لو سمحت ..بلال ..ارأيت كم هي صغيرة هذه الدنيا يا حسام؟؟ لقد رفضت ان تأخذني معك فجاء بي
ربي اليك "..قال دنجوا بالانكليزية .ثم تعانق الطرفان بقوة ..وبعد ذلك تعرف الاصدقاء الثلاثة على العضو
الرابع" علي "وهو مزارع متواضع من الجنوب انضم للمقاومة دفاعا عن ارضه.
كانت الطريق المؤدية الى قرية المروج وعرة ولولا مشاركة علي ابن المنطقة في هذه المهمة ما كانت الفرقة
لتنجح في فك طلاسمها .كان علي يدخل الانفاق و الدهاليز التي حفرها المقاومون ابان الغزو الاول ويتجنب
حقول الالغام بمهارة فائقة.
وفي جنح الظلام وصل الابطال الثلاثة الى هدفهم وتجنبوا كلاب الحراسة البوليسية و الاضواء الكاشفة
بمهارة منقطعة النظير .وقطع بلال الاسلاك الشائكة في منطقة مخفية عن الحراس كان علي قد راقبها بدقة
مدة شهر كامل تظاهر فيه انه راع للاغنام ثم قطع التيار الكهربائي عن السياج المكهرب ليتسنى لحسام

الدخول الى حرم القاعدة وتنفيذ مهمته .تدرب حسام على انجاز مهمته في فترة خمس دقائق في فترة التبديل
الروتيني للحراس، وبالفعل انجزها ضمن هذا الوقت القياسي و كان يهم بالعودة الى قاعدته سالما حينما انتبه
احد الحراس لوجود حركة غريبة في الجوار، فاطلق صفارة الانذار وهرع الجنود لمحاصرة الدخيل فانتبهوا
الى وجود الثغرة في الاسلاك فوقف اثنان منهم امامها كي يمنعوا الدخيل من الهرب، وشرع البقية في البحث
والتفتيش بدقة عن الدخيل المفترض.
في ذلك الوقت كان اسامة يراقب الوضع عبر منظاره الليلي بالاشعة ما تحت الحمراء ..ورأى حسام يشير
اليه بأن المهمة أنتهت وأنه يستطيع ضغط زر التفجير ..ولكن يد اسامة لم تطاوعه ان يفجر المكان بالعدو
وصديقه العزيز ضمن دائرة الخطر مع ان هذا السيناريو كان ملحوظا سلفا من قبل القيادة المشتركة
للمقاومة؛ فالمهمة يجب ان تنفذ ولو ادت الى مقتل الثلاثة؛ اذ ان الضرر المعنوي الذي سيلحق بالعدو اهم من
فقدان ثلاثة مقاومين تطوعوا في الاصل ليكون شهداء وحملوا اكفانهم على ايديهم منذ انخرطوا في المقاومة.
مع هذا كله آثر اسامة ان يخالف الاوامر، فأطلق النار من بندقيته القناصة على الجنديين الذين يحرسان

الثغرة؛ مما سمح لحسام ان يهرب من المركز المحصن قبل ان ينتبه لفراره بقية الجنود ..وضاع اثره في
الليل البهيم خاصة وان علي سبق وارشده الى نفق سري يسمح له بالهروب ..ولكن للأسف كان هذا الوقت
كافيا للجنود لينبتهوا الى مخطط المقاومة ويفككوا العبوة الاساسية التي وضعت في عمود مكشوف امامهم فلم
ينفع ضغط زر التفجير متأخرا الا بهدم جانب من الجدار الايسر للمركز المحصن.

اعتزال المهندس

عتم العدو على هذه العملية النوعية التي قامت بها المقاومة لما يمكن ان تتسبب فيه من ضرر معنوي للجيش
والمخابرات، وساعدهم في ذلك محدودية الانفجار الذي حصل والذي تمكنوا من اخفائه عن الصحفيين
والناس .اما قتلى بندقية اسامة فقد اشاع العدو انهم سقطوا بنيران صديقة اثناء التدريب .من جهتها اعتبرت
قيادة المقاومة الخلل في تنفيذ الاوامر خطأ تكتيكيا كبيرا، والقت المسؤولية المعنوية للفشل على الشيخ قاسم
الذي اختار الخلية بنفسه فتقبلها هذا الاخير بصدر رحب .وتأسف اسامة جدا للضرر الذي الحقه بصهره للمرة
الثانية وآثر ان يترك المخيم ليعتكف في مسجد طفولته مسجد الرحمة و يقبل على دراسة القرآن الكريم وتدبره

سائرا على خطى المجاهد الشيخ قاسم ..ولم يتعرف الناس على هذا
الوافد الجديد فقد غير الزمن من ملامحه
خاصة بعد ان ارخى لحيته وشاربه و استعاض عن لهجة مدينته
الحادة بلهجة اهل الجنوب المتراخية .في هذه
الاثناء كانت المراسلات قائمة بين عبير وزوجها الغائب عبر
البريد؛ ولكن لما كانت هذه الرسائل تتأخر احيانا
بسبب ظروف الحرب فقد قرر حسام ان يكتب لها في اول كل شهر
تقريبا رسالة يرسلها مع صديق الاسرة
السائق ابو شريف الذي يعمل على خط العاصمة – الجنوب .
وتأخر ابو شريف هذه المرة يومين عن موعده
فقلقت عبير كثيرا وفي اليوم الثالث جاء ابو شريف فتلقفته عبير
بابتسامة كبيرة وقالت" عمو ابو شريف؟؟لم
تأخرت هذه المرة؟؟ كانت الطريق مقطوعة اليس كذلك؟؟ .. "لم
يجب ابو شريف بل نكس رأسه في الارض
"ابنتي لقد رجوتهم كثيرا الا اكون انا من يحمل اليك هذا النبأ "..
فامسكت عبير بكتف ابي شريف وهزته بعنف
وقال ماذا هناك؟؟؟ تكلم .. هل اصابه مكروه؟؟"
رفع ابو شريف رأسه لترى عبير الدموع تنهمر بغزارة من مآقيه وقال
بصوت مرتجف" **ولا تحسبن الذين**
قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون"..

لم تصدق عبير الخبر وكأن صمما مفاجئا اصاب اذنيها فقالت
"ماذا تقصد؟؟ لا لا تقلها ..حسام لم يمت" ..
ثم ابتسمت ابتسامة عريضة كالمجنونة وقال" لقد كلمني البارحة ..
رأيته في المنام وطمأنني انه بخير..
مناماتي لا تخطىء ابدا "..ثم داخلها شيء من الامل" ربما اخطئوا
فيه ..ربما لم يتعرفوا على جثة مجهولة
فظنوها هو ..لربما اسره العدو.."
هز ابو شريف رأسه وقال" لقد تعرف عليه الجميع ..ودفنوه في
مقبرة الشهداء ..احتسبيه عند الله يا بنيتي"..
لم تستطع عبير ان تصمد امام هذا الكلام فانهارت تماما وشرعت
تضرب رأسها بالجدار وتقول " لماذا هو؟؟
لماذا انا؟؟ بم اذنبت حتى يكون عقابي هكذا؟؟ اولا والدي .. والان
زوجي ولم يمر على زواجه مني الا
اشهر؟؟ لماذا كتب علي الشقاء؟؟ .." فتح ابو شريف فمه ليعظها
ان تتقبل حكم الله ولكنه خاف ان يزيد ثورتها
اشتعالا فآثر ان ينسحب مفسحا المجال للنسوة من جيرانها اللواتي
هرعن لمؤاساتها بمجرد ان سمعوا
عويلها ..نعم ابى القدر الا ان يحقق مراميه" ..**يدرككم الموت ولو
كنتم في بروج محصنة** "فبعد ثلاث اسابيع
فقط من العملية الفاشلة اشترك حسام في عملية اخرى قضى فيها
هو وافراد خليته جميعهم اذ ترصدهم العدو

في كمين قاتل عند نهاية احد الانفاق السرية.
ومرت بضعة اسابيع حتى اعتادت عبير على تقبل الموضوع وبدأت
تفوق من صدمتها واسترجعت يقينها بالله
تعالى ولكنها في أوقات وحدتها كان تعود لتبكي بكاء مرا وتحمل
قميص حسام وتضمه اليها بشدة .وفي
الاسبوع الرابع حدث ما لم يكن في الحسبان، اذ جاءتها رسالة من
زوجها الفقيد فداخلها الامل لوهلة بأن يكون
حيا والغريق يتمسك بقشة امل .الا انها ادركت ما ان فتحتها انها
رسالة قديمة تعود لما قبل شهرين.
"اكتب اليك ايتها الحبيبة الغالية راجيا من الله تعالى ان تكوني انت
والصغير اسامة باتم الصحة ..لقد اشتقت
اليكم كثيرا .بالامس قمنا بعملية نوعية نجوت منها باعجوبة"..
وتوقفت عبير عند هذه النقطة واجهشت بالبكاء...

الخفاش يخرج الى النور

ومرت شهور على استشهاد حسام ولم يعرف اسامة بالموضوع
لاعتكافه في المسجد وانكبابه على دراسة
القرآن وتفاسيره .ورغم ان اسامة كان واثقا من النتيجة التي وصل
اليها قاسم من قبله عقليا الا انه احتاج الى
فترة من الاعتزال عن مشاغل الدنيا حتى يصل يقينه الى شغاف
قلبه .وبعد دراسة معمقة للقرآن خاطبت

القلب والوجدان قبل العقل والمنطق شعر اسامة ان وقت عودته الى الدنيا قد حان فلم يأمر القرآن بالزهد
والتنسك و الرهبانية بل طلب من المؤمن السعي في الارض واعمارها ووصل اسامة الى قناعة التسليم
المطلق للامور الى الله خاصة حينما علم ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد اتخذ حراسا له اعفاهم من
مهمتهم ما ان نزلت" **والله يعصمك من الناس** ."قرر اسامة ان يتخلى عن تمويهه ويعود ليظهر امام الناس
بشخصية اسامة رغم علمه ما يمكن ان يتعرض له من انتقام على يد فلول ميليشيا التنظيم و المافيات .ولكن
مع ذلك كان يعمل بالاسباب قدر استطاعته فلم يفارق عادته في التخفي وفي التحرك الليلي .وفي هذه الاثناء
كانت عبير قد قضت عدتها بوضعها لطفل ذكر اسمته حسام على اسم زوجها، رافضة وصية المرحوم
بتسميته اسامة وبدأت تخرج الى بيت اهلها نهارا لتعود الى بيتها ليلا فتمكث فبه .وخلال عودتها الى منزلها
ظهر شبح اسود من الظلام امامها فوجلت وحاولت الانسحاب بسرعة من طريقه..

"لا تخافي "نادى الشبح" انا اسامة"..

فرمقته عبير باشمئزاز قال" انت؟؟ اسامة القاتل ..المجرم .. المتكبر ..خفاش الليل"

اسامة بهدوء :سامحك الله .. اهذا ما ترينه في حقا؟؟
عبير :لو اردت ان اعدد ما فيك لاستهلكت قاموس الشتائم ..لكني امراة ملتزمة واصون لساني عن فحش الكلام.
اسامة :بارك الله فيك يا عبير ..والله لم اظن بك يوما الا هذا..
عبير بغضب :لم تكذب؟؟ الا تذكر كل اهاناتك لي في المدرسة؟؟ الا تذكر تكبرك؟؟ الا تذكر كم مرة ابكيتني؟؟ هل تريدني ان انعش ذاكرتك؟؟
اسامة :عبير ..كنت طفلا ..اتحاسبيني على تصرفات صبيانية ؟؟
عبير بغضب :لا يا أسامة ..الانسان لا يتغير ..انت هكذا من يوم ولدت ..انسان حقود ومتكبر ..عندك مرض جنون العظمة ..توق غريب للسيطرة ..حتى اني عانيت مع زوجي الشهيد كثيرا محاولة ان اخلصه من سيطرتك ..ثم اجهشت بالبكاء وقالت" رحمه الله وسامحني على رفضي وصيته ان اسمي ابني على اسمك"
اسامة" :الله يرحمه ويتقبله في عداد الشهداء ..لقد كان اعز اصدقائي ..معك حق انا لا استحق ان اكرم بهذه الطريقة"
عبير :لقد استشهد في الجنوب مقاتلا ومدافعا عن دينه وارضه .. اما انت..
اسامة :انا ماذا؟؟ انطقيها..

عبير :انت مجرم سفاح ..تقتنص ببندقيتك الابرياء من ابناء وطنك العزل على حين غرة..

اسامة :لا يا عبير ..ربما كنت كذلك في بدايات انضمامي الى التنظيم، حينها ظننت ان قتل المدنيين الابرياء

من الطرف الآخر ضروري للدفاع عن مدينتنا ..ولكن بعد ان عرفت حقيقة الوضع لم اقتل الا من يستحق

القتل ..وانا لن اندم على هذا.

عبير بغضب :ماذا تظن نفسك؟؟ القاضي والجلاد في الوقت نفسه؟؟ من انت لتصنف من يستحق القتل ومن لا

يستحقه؟؟ ماذا تظن نفسك روبن هود ؟؟ تسرق الاغنياء وتعطي الفقراء؟؟

اسامة بهدوء :الله يسامحك ..ماذا اقول لك؟؟ لن تصدقيني..

عبير :صدقت ..هذه الجملة الوحيدة التي تصدق فيها ..انا لن اصدقك ابدا ..افهمت؟؟

اسامة وقد فقد صبره :عبير ..انت قاسية جدا ..انا عشت ظروفا صعبة ..انا لم اولد وفي فمي ملعقة من

ذهب .فتحت عيوني والقذائف تتساقط حول بيتي، والدي استشهد وانا طفل، لم يكن لدي والد حنون مثل والدك

ليوجهني .. .قتلوا امي غيلة وهي تنشر الغسيل ..اضطررت ان اعيل اخوتي وانا في السابعة عشرة،

اغتصبوا اختي ..ماذا كنت تنتظرين مني ؟؟ ان اكون ملاكا؟؟ ام ان ادير لهم خدي الايمن؟؟

عبير يهدوء :هل انتهيت من كلامك..

اسامة :نعم..

عبير :لقد اضعت خمس دقائق من وقتي الثمين..

"انت قاسية جدا يا عبير "قال اسامة بحزن وشد قبضته بقسوة على شيء يحمله فبدأت الدماء تسيل من يديه

دون ان يبالي:

فصرخت عبير بجزع :ماذا تحمل في يدك؟؟

فكبت اسامة المه وقال" : لا شيء ..لا شيء "..ثم انصرف لا يلوي على شيء.

سقوط العملاق

ولم يطل باسامة المقام في مدينته حتى عرف بوجوده فلول رجال التنظيم ..فارسلوا اليه من يقتله غيلة.

خاصة وانهم حملوه ذنب انهيار حزبهم ..بالفعل نجح هذا الشخص في اصابته بجراح قاتلة .فجر اسامة نفسه

جرا حتى وصل الى منزلي ..كنت قد عدت لتوي من العاصمة بعد ان مكثت فيها اشهر الصيف وآثرت

العودة الى منزلي انا ورائد .استقبلت اسامة على الباب وصرخت بجزع لدى رؤيتي له مضرجا بالدماء

فاسندته على كتفي ثم مددته على سريري وهرعت فورا لاستدعاء طبيب ..وجاء الطبيب على عجل وضمد
جراحه قدر الامكان ..وبمجرد خروجه من غرفتي جريت اليه وقلت له" ارجوك طمئني يا دكتور ..هل
جراحه خطيرة؟؟"
فتمتم الطبيب باسى" لا اخفي عليك ..الوضع معقد جدا ..جراحه عميقة"..
"هل ننقله الى المستشفى؟ "قلت واعصابي لا تكاد تحملني..
لا يا حنين، لم يعد الطب يستطيع ان يقدم له أي شيء ..امره بيد الله وحده.
كان لهذا الخبر وقع الصاعقة علي ..كنت اتخيل موت الكل الا موت اسامة ..طالما بدا لي شامخا قويا معتزا
بنفسه ..يتحدى الموت ويهزأ به ..كان هذا امرا صعبا علي ..صعبا جدا .لكني تمالكت اعصابي وذهبت الى
سريره وقبلت غطائه الملوث بدمائه الزكية .فشعر بي وافاق من غيبوبته وقال بصوت خافت"" ماذا اخبرك
الطبيب ؟؟ سأموت اليس كذلك؟"
فمسحت دمعت نفرت من عيني وقلت" لا يا اسامة ..ستعيش ان شاء الله .. كن واثقا برب العالمين"..
"ونعم بالله "قال اسامة ثم اعقب" معك حق"..
"معي حق بماذا؟؟"

فاخرج عصابته الحمراء من جيبه حتى اصبح لونها قانيا وقال لي وهو يبكي" انا لست سوبرمان "...ثم

استرجع رباطة جأشه وقال" حنين، هل ممكن اكلفك بمهمة؟؟"

قلت" فداك روحي ودمي يا ابن عمي ..ماذا تطلب مني؟"

قال اسامة بصوت خافت " عبير"..

ماذا تريد منها هذه الحرباء؟؟ الا يكفي كم سببت لك من آلام؟؟ "

قلت والم الغيرة يعتصرني..

فغالب اسامة المه وابتسم قائلا" حرباء ؟؟؟ الله يسامحك ...انها طاهرة كالملاك "ثم تابع" هناك شيء يخصها

معي ..لم استطع ان اعطها اياه في آخر لقاء لنا "واخرج من جيب قميصه سلسلة مضرجة بالدم وسلمني اياها

قائلا" عودي بسرعة ..لا ارغب في ان اموت وحيدا . "وانهرت عند هذه الجملة بالبكاء وكأني طفلة صغيرة

لكن اسامة مسح على حجابي بحنان شعرت معه بأن فيض القوة الذي طالما تميز به انتقل الي فقمت على

الفور لانفذ طلبه.

استقبلتني عبير ببرود وكلمتها ببرود مماثل فقلت لها" اسامة اصيب بجراح قاتلة ..لقد لاحقه افراد التنظيم"..

فقالت ببرود" وبشر القاتل بالقتل ولو بعد حين"..

فقلت لها بغضب شديد" راعي مشاعري على الاقل ..على كل حال انا لم آتي هنا لاقنعك بتوديعه ..فانا

اعرف ان قلبك من حجر ..ولكن جئت لأسلمك أمانة تخصك ..
كان ينوي ان يعطيك اياها في لقائكما الاخير..
"ورميت السلسلة المضرجة بالدماء في وجهها وانصرفت.

عرس في الجنة

امسكت عبير السلسلة المضرجة بالدماء وتذكرت منظر الدم يسيل
من يدي اسامة فايقنت انه كان يشد على
هذه السلسلة ولا ريب وانه كان يود ان يعطيها اياها .واثارت هذه
السلسلة فضول عبير ..لم يصر ان يعطيها
اياها وهو على فراش الموت؟؟ ومسحت عبير السلسلة من الدماء
فبدت لها ناصعة لماعة كيوم اشتراها لها
والدها اول مرة ..نعم لقد كانت سلسلتها التي انتزعها منها قطاع
الطرق على الحاجز الطيار في اليوم الذي
كانت تنقل فيها والدها الى المستشفى في العاصمة .وبدأت
الذكريات تنتعش من جديد في رأس عبير ..كيف
وصلت هذه السلسلة الى يد اسامة؟؟ هل كان موجودا حينما قتل
قطاع الطرق؟؟ ثم تذكرت كيف سقطوا
صرعى فجأة وكأنهم اصيبوا برصاص قناص ماهر ..لا بد انه
اسامة اذن ..اسامة الذي كان يتبعها كظلها..
والاموال التي كانت تجدها في البريد ..كانت من اسامة ايضا ..
كان يتبعها الى أي مكان وكأنه ملاكها
الحارس..

تجمدت اوصال عبير حينما بدأت الخيوط تتكشف لها شيئا فشيئا ..
وتذكرت زوجها الشهيد ومحبته لاسامة..
وتذكرت رسالة زوجها التي تلقتها بعد وفاته فاخرجتها بعناية من
الخزانة وشرعت في قراءتها الى ان وصلت
الى المقطع الذي فسر لها الحقيقة كاملة.
"انظري يا عبير ..اسامة ليس الشخص الذي تظنينه، لقد احبك
بصمت وشرف ..ولما لم يجد في نفسه القدرة
على اسعادك شجعني انا على التقدم لك و طلب يدك وضحى بحبه
لاجل سعادتك .يومها وافقت بسرعة على
طلبه لاني كنت احبك كثيرا انا ايضا ولكني اكتشف الآن اني
اخطأت فهو ضحى لاجلي بأشياء كثيرة وانا
كنت انانيا معه فهو احبك قبلي .لماذا اكتب لك هذا الآن؟؟ اتعرفين
يا عبير ان اسامة انقذني من الموت اثناء
المواجهة الاخيرة مع العدو ..لقد احاط بي الاعداء من كل جانب
وكادوا يجهزون علي لكنهم تساقطوا الواحد
تلو الآخر كاوراق الشجر ..اسامة قتلهم .انا اعرف انه دائما ما
اعتبرني اخيه الصغير المكلف بحمايته
ولكني شعرت في تلك المرة انه كان يحميني لأجلك وليس لأجلي .
اسمعي يا عبير ساقول لك كلاما لم يقله
زوج من قبل لزوجته ..على الاقل زوج عاشق لزوجته مثلما
اعشقك ..مهمتي التالية خطيرة جدا ..والقائد

قدر نسبة نجاحي بالخروج منها على قيد الحياة بنسبة عشرة في المائة ..فان مت فانا لن اجد من يحفظك اكثر
من اسامة ..انا اقولها والدم يغلي في عروقي من الغيرة .ولكن يا عبير، هذا الرجل ضحى من اجلي بالكثير..
وكتم حبه وداس على قلبه ليسعدك ويسعدني ..أنا الآن على ابواب الشهادة ..فكما اضع روحي على كفي علي
ان اضع قلبي على كفي ايضا ..وان شاء الله نجتمع نحن الثلاثة في الجنة وتختاري الانسب بيننا ..حينها لن
يكون هناك غيرة ولا تحاسد ..وسيعوض الله من خسرك منا بنعيم ما بعده نعيم".
ولم تصل عبير الى هذا السطر الا وكانت عيناها قد اغرورقتا بالدموع واختلط حبر الرسالة بدموعها وبدم
اسامة الذي لم يجف بعد عن السلسلة .واستجمعت عبير ما بقي منها في قوة لتأتي الى منزلي .فتحت لها الباب
فلم تكلمني بل اندفعت داخلة بقوة دون ان تنتظر اذني باحثة عن اسامة الى ان وجدته اخيرا في غرفتي..
فجثت على ركبتيها وانهارت بالبكاء وهي تردد" سامحني ..لقد اخطأت بحقك كثيرا"..
فابتسم اسامة متعاليا عن جراحه وقال وهو يغالب المه" اسامحك؟؟ ومتى غضبت عليك حتى اسامحك ..لطالما

كنت محقة فيما تقوليه عني ..انا فعلا كما تصفيني ..انا خاطىء
ومذنب ولكني ارجو من الله ان يقبل توبتي
عن كل ذنب اقترفته"..
فتقدمت عبير وقالت بجرأة فيها الكثير من الحياء" اسامة، هذا
موقف غريب على المراة ..خاصة على امرأة
ملتزمة مثلي ..لكن ..هل تقبل ان تكون زوجا لي؟"
فبهت اسامة لطلبها المفاجىء وقال" عبير ..انت تعرفين ان هذا
حلمي منذ اول يوم وقع بصري فيه عليك..
لكن ..الآن؟؟ لم يعد في العمر بقية"..
فذرفت عبير دمعة سخية وهمست" اريدك معي في الجنة"..
فقال اسامة " لا استطيع .. انت زوجة حسام ..اعز اصدقائي"
قالت عبير " هذه وصيته " ..وقرأت عليه سطورا من وصيته
فاجهشا بالبكاء معا ..ثم تابعت" اسامة شهيد
سيبدله الله خيرا مني وسيهبه سبعين من الحور العين .. انا لا
يمكن ان اكون الا لك" ..
واستدعت عبير ثلاثا من اصدقاء اسامة وحسام المقربين فعقد
احدهم زواجها عليه وشهد الاثنان على صحة
العقد .ولم تمر الا بضعة ساعات على العقد حتى بدأ اسامة يلفظ
انفاسه الاخيرة فطلب من عبير ان تقترب
منه وقال" عبير ..هناك مشهد لطالما حلمت ان اشاهده معك ..
ارفعيني قليلا ارجوك الى النافذة"

وتعاونت انا وعبير على رفعه قليلا ثم جلست عبير خلفه وضمته الى صدرها ليراقبا معا غياب قرص الشمس
في اعماق البحر ..وقالت" :تخيل هذا معي ...تخيل عرسنا في الجنة... زفافنا الأبدي ...زفاف لم تره عين
ولم تسمع به أذن من قبل ...وكيلنا وولي أمرنا الرسول الكريم سيدنا وحبيبنا وقرة أعيننا صلى الله عليه
وعلى أصحابه وأزواجه وذريته وأحبابه أجمعين وسلم وبارك ...وأن يكون الشهود هم الملائكة الكرام
البررة ...وأن يكون المدعوين هم أهل الجنة ...ومن يأمر بعقد هذا القران القدسي هو الله جل جلاله ...تخيل
الحور العين يحفون من حولنا كالنجوم التي تنير طريق الشمس والقمر في يوم لا ليل فيه ولا نهار .تخيل...
"لا لن اتخيل "...قالها اسامة بصوت متحشرج وصمت برهة ثم شخصت عيناه في السقف وكأنه يرى
مخلوقات غير مرئية وتابع" :لأني اراه "...ومع آخر شعاع من اشعة الشمس اختفى في الافق كان آخر قبس
من روح اسامة الطاهرة قد غادر جسده.
وجلست عبير تندب عريسها وتبكيه بحرارة فيما جلست قربها بصمت .. لم يكن اسامة العاشق الصامت
الوحيد في القصة ..بل كان هناك من احبه بصمت ايضا .. لدرجة انه لم يستطع حتى ان يبكيه امام الناس..

نعم لقد احببته ولم اجد الا هذه القصة التي تخلد ذكراه كوسيلة مني للتعبير عن حبي له.

تمت